


COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK





سر عظمة سعد

أو

فلسفة البطولة

كلمات خالده

في تحليل عظمة صاحب الدولة بطل مصر المعظم

سعد زغلول باشا

بقلم الكاتب الاجتماعي الكبير

السيد عبد الرحمن البرقوقي

صاحب مجلة البيان

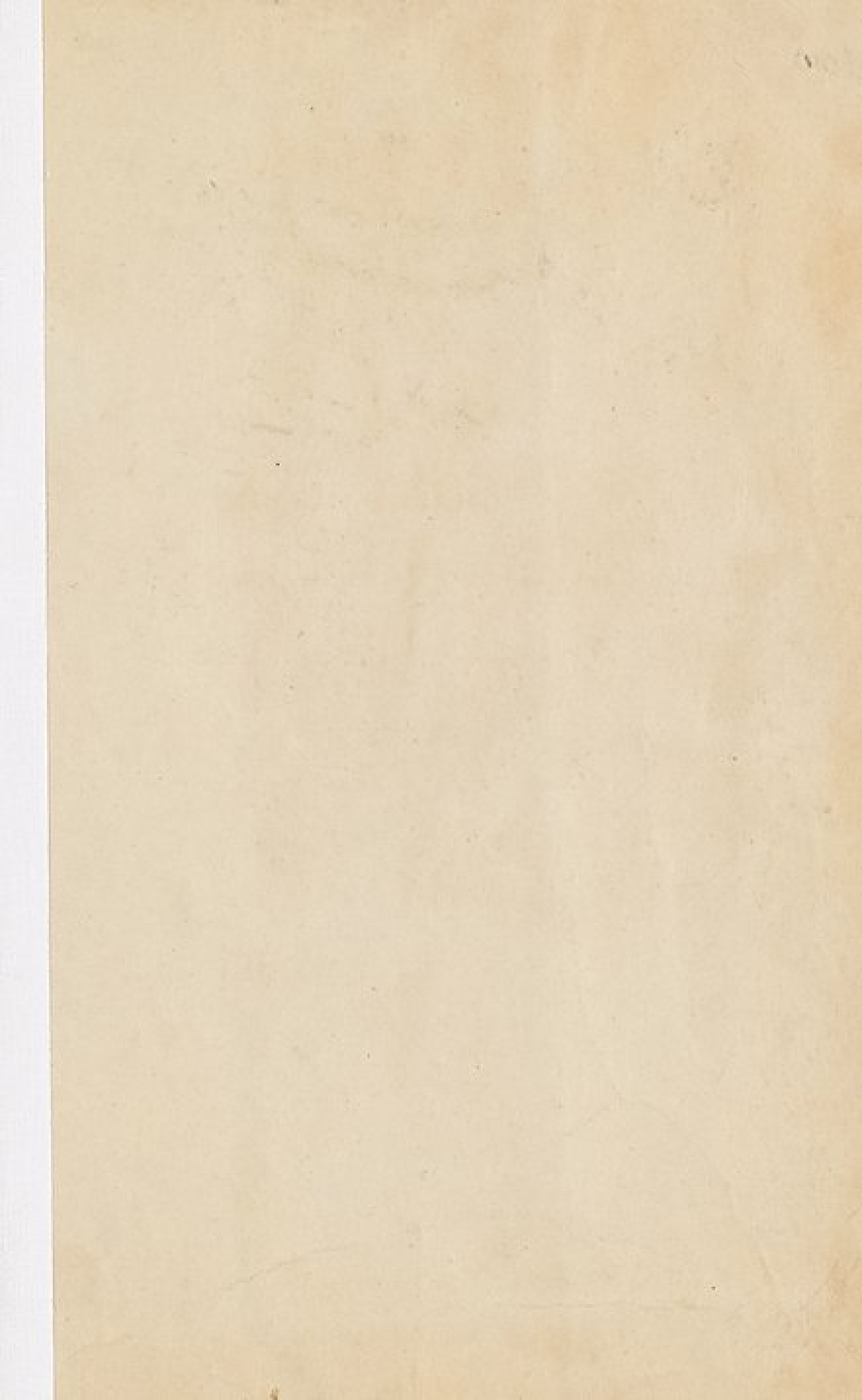
طبعت على نفقة

ابراهيم جلال

مدير مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها محمد علي



100 PT

سر عظمة سعد

أو

فلسفة البطولة

كلمات خالدة

في تحليل عظمة صاحب الدولة بطل مصر العظيم

سعد زغلول باشا

Barquqi

Sirr Azamat Sad

بقلم الكاتب الاجتماعي الكبير

السيد عبد الرحمن البرقوقي

صاحب مجلة البيان

طبعت على نفقة

ابراهيم جلله

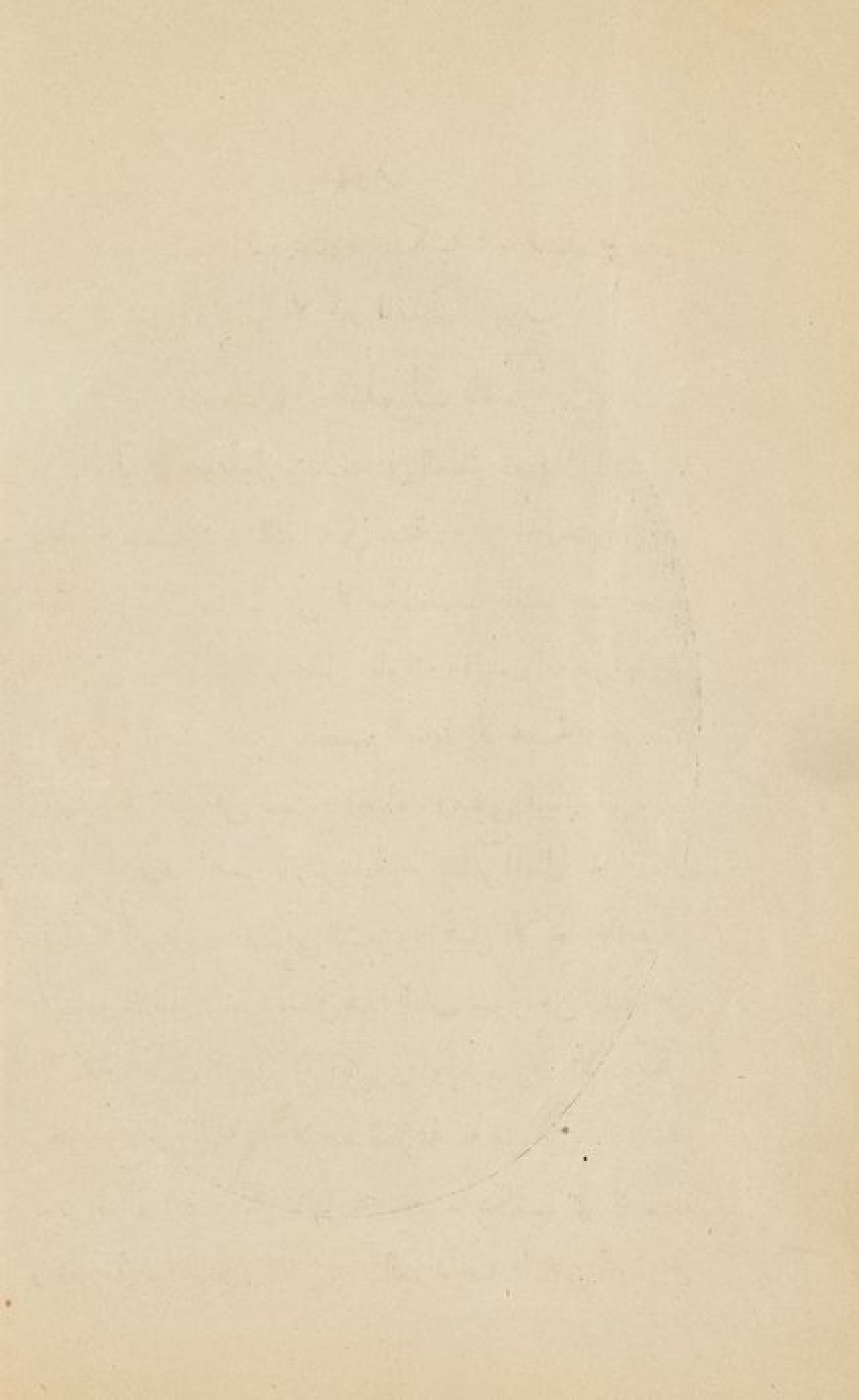
مدير مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها حسنه علي



﴿ صاحب الدولة سعد زغلول باشا ﴾



تمهيد

هذه كلمات خالدة مختارة مما نكتبه مجلة البيان على بطل مصر العظيم ورئيسها الاكبر المفدى المحبوب

سعد زغلول باشا

والبيان هو أول صحيفة فى العالم تصدت للاشارة ببطولة سعد . وذلك انه في سنة ١٩١٤ اذا اختير الزعيم العظيم وكيلا منتخبا عن الأمة للجمعية التشريعية أخذ البيان في ترجمة سعد وتحليل بطولته واثبات انه من أولئك الابطال العظام الذين تنجبهم العناية الألهيـة وتخرجهم الفينة بعد الفينة على مسرح الحياة . ومضى البيان من ذلك العهد — عهد الجمعية التشريعية — ينشر المقال تلو المقال بذلك الاسلوب الفلسفى الشعرى الجميل الآخاذ بالنفوس السحار للالباب حتى بذ فى هذا الباب سائر من كتبوا على الابطال أمثال كارليل الانكليزى وأيمرسون الامريكى وهو نوع من الكتابة لاعهد للعربية به من قبل — نوع قوي فعال رائع جميل جليل هو خير ما يكتب على الابطال وخير ما تعيه القلوب م؟

السيد عبد الرحمن البرقوقي

الباب الاول

نحن الآن أزاء تاريخ مصر الحديثة كله مجتمعا في تاريخ رجل . بل نحن الآن حيال ترجمة الامة مجتمعة في ترجمة واحد . وكأني بالقوة الازلية تراعي وجوه الاقتصاد في خلق الناس وتوزيع ثروة العقول عليهم . فهي اذا شاءت أن تخلق عظيما . أو أرادت أن تجود بعقل جبار . جمعت اليها آلافا من العقول الانسانية فدمجتها في عقل جبار عظيم . ولقد يمر الجيل فيعدو الى القرن . والاقدار لا تزال تهيء لأمة عقلا مفردا هائلا يغنيها عن نصف عقولها . ويكون بمثابة الغذاء التاريخي لها .

فاذا ما أخرجت الامة عظيما . فكأ نما لم تتسع في عهده الا له وحده . وكأن روحه وعقله وأخلاقه ومميزاته عدسات تبصر منها أمته عقلها وأخلاقها ومميزاتها . وكانه يجلو بصر كل منا ، ويزيل عن عينيه حجاب الانانية فلا ننظر الا له

والعظائم فعاله . ولا تكون الامة منه الا كما يكون من الصبيه ازاء معلمهم ، اذا كانت الحياة تجرى على قاعدة مدرسية بحتة والناس يحترمون عظيمهم لانه ابدع قالب يحاولون أن يصوغوا أنفسهم على نحوه ومثاله .

ونحن بنى الدنيا نعيش ونتغذى من العظمة . ونحس في وجود العظيم بيننا أنا جميعا عظماء . ونشعر فى حضرة العقل الكبير أنا بجملتنا جمع عقلاء . لانه ينبه منا خامد عقولنا . ويثير فى قلوبنا هاجع حميتنا . ويوقد بين اضالعنا فاتر ارواحنا ويكرهنا على أن يتناول كل عمل بعمله بحثا وتفكيرا . ويريدنا على أن نتداول كل كلمة يقولها شرحاً وتفسيرا . ويطالبنا بأن ننهض لحسناته تحبيذا وتكبيرا لان الناس يستحبون الحمية ، وان لم يكونوا هم مادتها ويتطلبون الحرارة النفسية وأن لم يكونوا هم انفسهم نشأتها ولا تقوى أعصاب الامة الا بالمصل الذى يحقنها به قادتها ولا تشتد عضلاتها الا بالحركات الرياضية التي يمرنها عليها رجالاتها ، وكان خليقا بقادة الشعوب أن يكونوا أعلم بطب النفوس ،

واخبر بالادوية النواجع التي توافق أمزجة شعوبهم

هذا ولو لم تكن الجمعية التشريعية تضم بين أعضائها صفوة رجال الامة ، وخلاصة مجموعها . لما رأيت من عرض الامة فردا واحدا متنبها متيقظا . ولأسدل السبات ستره على الامة والجمعية معا . فلا تكون محاضر الجمعية الا مواعيد نوم تبتدىء وتنتهي بدقات أجراس أول من ينام وأول من يصحو من أعضائها ؛ واذن لما سمعت في النوادى والمجتمعات والاسمار هذه الشروح القيمة . والتأويلات الجليلة والاستنباطات الدقيقة والاستنتاجات الثمينة . والاقتراحات السديدة . والآراء الوجيهة . التي يلقاك بها القوم على اختلاف طبقاتهم . وتباين اقدارهم . وتعدد اوساطهم . ولما رأيت نبض السياسة على ماشهدت من قوة وعاينت من ضربان وانتظام .

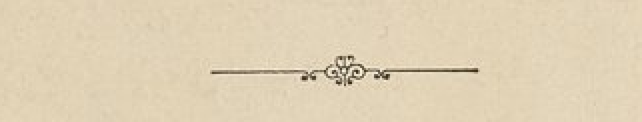
وهذه الروح السياسية القومية : وهذا التطور الفلسفي الذي وثبت اليه الامة : هما فيض من روح رجل عظيم : كان اكبر ثمرة جادت بها الاقدار على هذا البلد المجدب

رجالا : الخصيب زرعا ، المريع نباتا : بل هو المادة الواسعة التي يتغذى منها تاريخ مصر الحديث : وهو الكوكب الانساني الذى فى كل قلب مصرى منه وميض : وفي كل عقل مصرى من سناه قبس وضياء . وفى كل نفس مصرية من وهجة شعاع ولألاء . ولا احسب القارىء يعوزه بعد ذلك التفهيم ، ولا اظنه بحاجة الى زيادة الايضاح والتبيين : — بلي : هو سعد زغلول باشا قائد الامة اليوم ووزيرها بالامس وقاضيها من قبل ذلك ومحاميها بل هو أول محام راح فى الامه قاضيا وأول قاض كان وزيرا وأول وزير أضحي في هذا الجيل نائبا

وانت فستقرأ في الصفحات الا تيه تاريخه الحافل بالعظائم : وتعي ترجمته المترعة بالمحاسن والمكارم : فتتبين لنفسك كيف يكون العظيم فى قوة الارادة وما قوة الارادة . الا انتصار للقوة الالهية الكامنة فى الانسان . وما القوى فى ارادته الا من يكون لنفسه قانونا وشرعة ونظاما . يعلم علم اليقين انه اذا نزل على رأيك وحكمك . وعمل

بامرتك وأرادتك . وخضع لسيطرتك وسلطتك . عطل فيه الارادة التى تحركه وافسد على الميكانيكية التي ركبها فيه لتسييره

وسعد باشا من غير جدال أمهر من كتب . وأفصح من خطب . وابلغ بليغ انقادت له البلاغة . بل هو السياسى الكبير . الذى لايجاريه انسان . ولا يقف فى سبيله شجعان نبه همم الامة الى مقصدها الاسمى . ونهض بها نهضتها الكبرى . مضحيا فى سبيل حريتها ثروته . وصحته وحياته



الباب الثانى

بطل مصر العظيم

سعد زغلول باشا

لعل قرائنا لا يزالون على ذكر مما كتبه البيان باستفاضة أوائل سنه ١٩١٤ عن بطلنا العظيم ، ورسول هذه الامة القوى المتين — سعدزغلول — لمناسبة اختياره وكيلا عن الامة في الجمعية التشريعية — وكانا مما كتبنا اذ ذاك كنا نتنبأ بما سيكون من سعد ، ونقرأ بظهر الغيب تلك الآيات التى خبأها القدر مسطورة في صحيفة بطل مصر — وان كل من عرف سعداً قبل اليوم وخالطه كما خالطناه ، وكان ثاقب النظر نافذ البصيرة نيرها ، لا بدمتمنيء نبوءتنا ، قاض بأن سيكون لسعد هذا الشأن أومثل هذا الشأن . وهكذا نبأنا التاريخ بأن عظماء الدنيا وأبطال العالم

من انبياء ومصلحى اديان وفاتحين ومحررى اوطان ومن اليوم قد عرفهم وتنبأ بما سيكون منهم — قبل ان يكون — كثير ممن رآهم

واليوم وقد تحققت نبوءتنا واصبحنا نرى البطولة تغدو وتروح بين ظهرانينا ونرى حتما لزاما علينا ان ننبه الغافلين الى هذه البطولة الخالدة والى وجوب تقديسها وحبها واحترامها والاغتباط بها والتملى بجمالها وجلالها ؛ اذ يعد جحودها أو عدم تقديرها سبة العصر ووصمة الجيل وعنوان الكفر والالحاد وفساد القلوب وخبث الارواح وموت الضمائر — نعيد الكرة ونأخذ فى الكلام على البطولة وخصائصها ومزاياها وآثارها الصالحة فى العالم ؛ وانها كلها الآن بحمد الله ماثلة بمصر في شخص سعد .

الباب الثالث

كل خصائص البطولة من الرجولة الحقة القوية المتينة، والصراحة التامة الخالصة النقية ، والاخلاص الحار العميق والايمان القوى الراسخ والصدق ، واليقين والثقة بالنفس والمضاء والجرأة والاقدام وقوة المعارضة ونصوع الحجة ، ووضوح المحجة . كل اولئك موفور في بطل مصر العظيم سعد زغلول باشا ، فهو بلا شك بطل من ابطال الدنيا وعظماء العالم الذين ترسلهم السماء الي هذه الارض في الوقت المناسب . ومن الحين الى الحين . رحمة للعالمين

***

لا يعرف البطل ولا يقدره حق قدره ولا يحبه ويحترمه ويؤمن به ويشد أزره ويهتدي بهديه وينقاد اليه الا كل من كان فيه عنصر البطولة . فكل من يفطن الى بطولة سعد فيقدسه ويؤمن به ايمانا تاما مطلقا لا شوب فيه ولا حد له ، فذلك لانه هو الآخر رجل بطل صادق

مخلص طيب العنصر كريم المنبت كبير القلب عظيم الروح آلهي النزعة ، وقدما قيل « انما يعرف الفضل من الناس ذووه » وكل من لا يؤمن بسعد كبطل من ابطال الدنيا فلا يستشعر حبه واحترامه وتقديسه والتفاني والاستماتة فى ذلك الي حد الهوس والجنون فهو اما رجل جبان مروّع منخرب القلب ، او رجل حقود حسود رانت على قلبه القوة الغضبية ، واهوت به الى ماهو دون مستوى الانسانية العالية ؛ او رجل خاوي النفس فاتر الروح بليد القلب ، او رجل ماكر خبيث ملحد ناضب معين الايمان فلا قلب ولا صدق ولا اخلاص ؛ وبالتالى لا خير فيه لنفسه ولا لاهله ولا لدينه ولا لوطنه .

*
* *

من اكبر خصائص البطل ان يكون أشياعه ومريدوه من ذوي الارواح الطاهرة النقية البريئة ، أو القلوب الحارة النارية المتأججة المضطرمة ، ومن ثم ترى أول من يؤمن به وببطولته هم أولئك الذين لم تلوث فطرهم ، ولم تدنس من

الاؤم اعراضهم ، من الشباب والنساء والاطفال والعامة والمصطفين الاخـ ا.. من الخاصة . ونرى اشد الناس عداوة له ومناوأة او المتثاقلين المتباطئين في أمر الايمان به ، هم أولئك الذين يعبر عنهم في هذا العصر بأرباب المصالح أو المعتدلين أو المفكرين ، لان هؤلاء لانهم ماديون أرباب غايات دنيوية عاجلة ، أو لانهم فاترو الارواح خائرو النفوس متبلدو القلوب ؛ أو لانهم لؤماء ما كرون ، يظنون أن البطولة تقف عثرة في سبيل غاياتهم ؛ أو هي حجة قائمة على بلادتهم وفتور ارواحهم ، أو هي اعلان عن ضآلتهم وحقارة نفوسهم .

الباب الرابع

التاريخ هو قصيدة الحياة الطويلة المطربه المشجية ، والياذتها الحماسية المسلية وسفرا اناشيدها المؤثرات ، وتراتيلها المبكيات ؛ وهو الرواية التمثيلية الكبيرة التي افتن فى خلق أشخاصها فن السماء المبدع الفائق الذي يرسل لنا من وقت لآخر شخصيات عن صنع الحقيقة أوفر بطولة وأعمق حكمة من كل مبتكرات الخيـال وتلفيقات الاوهام ترتسم في طبائعها القوية الصافية ظلال تلك القوة المرهوبه الجانب المسيطرة على الكون — ويجي هؤلاء الابطال لتمثيل أدوار متعاقبة مختلفة الصورة متحدة المغزى فوق مسرح الحياة الكبير المخيف ذلك المسرح المشيد من الزمان والمكان والممتد بين الازل العتيق والابد السحيق ، والذي تنيره مصابيح النجوم السرمدية ويشرق من سقوفه اضواء الشمس الخالدة

واجل ما في التاريخ نهضاته فان كل نهضة مهما كانت

الفكرة التي قامت عليها ومهما كان نصيبها من الحق والجمال جديرة بالنظر واعمال الروية لما يظهر فيها من نفائس النفس وكنوز الروح ، فان من شأن النهضات انها ترفع الاستار عن حياة الشعب الداخلية فتظهر خصائصه ومزاياه في شكل اخاذ ورونق خلاب

واذا كان اجل ما في التاريخ نهضاته وكانت كل نهضة ادبية كانت أو سياسية أو دينية تمتاز برجل كبير يسمها بميسمه ويكون منها بمثابة محور الدوران فانه يصح لنا أن نستخلص من ذلك ان العظماء هم عصارة التاريخ ولبابه وسره وجوهره ، ومن يقلب الصحف المطوية في بطون التواريخ لا يمكنه مهما كان منكرا لعقيدة البطولة هادما لمذهب الشخصيات التاريخية ان ينكر ما لهؤلاء الافذاذ النوادر من خطارة الشأن في اقامه موازين الحضارات وتأثيل مجد الشعوب وهم أشبه بالالات الرافعة توجدهم الطبيعة عندما يسئمها سير التطور التدريجي لاحداث الطفرة فلا عجب ان هي حبتهم بتلك القوة العادية اللازمة لتلك الفعلة

الكبيرة — وليس العامل الفرد في خلق أمثال هؤلاء الافراد الظروف والوسط فان رجالا مثلهم لا ترفعهم الظروف وأنما هم الذين يرفعونها ولا يخلع عليهم الزمن ابراد المجد وأنما بهم تكتسي الازمان جمالا فشيبا وجلالا مهيبا والوسط هو الذي يستمد من صادق وحيهم ويستنير بثواقب آرائهم ويستند على مواضي عزماتهم ويستقي من ينابيع قواتهم الروحية والاخلاقية ؛ ومن الغبن والتوهين من أمر تلك الشخصيـة الكبيرة أن تعتقد انها من صنع الظروف وانها جاءت محمولة على تيار النهضة

وانما سبب بطولة البطل ترتد الى أسباب وراثية بعيدة الاعراق من فوق منال المفكر الاجتماعي لان بارقات أفكاره لا تنير في غياهبها المتكاثفة ونافذات نظراته لا تتغلغل الى أغوارها المتقاصية والبطل يحمل في دمه جرثومة عظمته وبين جوانحه سر بطولته وانما فضيلة الظروف هي في انها تجلو تلك الحياة الداخلية وتهيء له الفرص وتعد له المعدات وتفسح له المجالات والعظيم أشبه بالزهرة تستتم نموها

وتنفتح كمائمها ويتفاوح أرجها اذا هي أصابت جوا صالحا تتغذى منه عناصرها الكريمة

من أولئك الرجال الذين تزخر في عروقهم دماء البطولة والذين يرسلهم القدر مزودين بالقوة الخفية ، ومن تلك الشخصيات الغلابة الجاذبة التى تطالبك في كل وقت أن تفكر فيها وتقتادها نحوها — سعد زغلول باشا بطل مصر في نهضتها الاخيرة والذي في وجوده بيننا معنى سام يملأ نفوسنا ثقة ويقيننا فان الارض التى تنبت الدوحة الباسقة - الوطن الذى ينجب مثل سعد جدير ان يحمل ثراه ادواحا فارعات نظائر سعد - وظهور بطل كسعد يدل على سلامة عضوية الامة وقوة صلبها لان الامم الواهنة الدارجة الى الاضمحلال يندر فيها ظهور العظماء ، والقوة المكتنة في سعد دليل قوة الامة وعنوان حيويتها وهذا مما يغمر نفوسنا بنور الامل الوضاء

ان الرجل الكبير لا يبتكر أفكار عصره ولا يبتدع مبادئه ولا يخلق امانيه ومنازعه ؛ لانها كلها مجموعة عضوية مكونة لذهنية الشعب ، وهي اكبر وا كثر تعقيدا من ان

يوجدها فرد ولكن المظيم ينفخ فيها كلها روحا من أنفاسه فتتحول الفكرة الى احساس دافق والمبدأ الى عاطفة مستفيضة ويجعل للامل المتردد الحائر والنزوع القلق الثائر وجهة ينتحيانها وتنصب اليها متزاخر تياراتهما وهذا ما يزيدهما قوة وتدافعا . وانه من جانب سعد هبت تلك النسمة المتأرجة التي أحيت القلوب وشدت العزائم . وفى معبد فؤاده الكبير كانت تجول الافكار البركانية الحارة حتى أصابت من الظروف مخرجا . وسعد هو ذلك الكاهن الالهى الذى اوقد النار المقدسة بين اضالعنا وهو لذى جدد أمام نواظرنا صورا شتى من افاعيل الابطال . وهو الذى نقل الشعب من التفكير فى سفاسف الامور ومحاقرها الى التفكير في الغايات العامة الكبيرة ومطالب الحياة السامية النبيلة والعظم هو الناطق عن الذات العامة لشعبه والناشر لمطوى خوالجه ، فآلاف النفوس الصامتة تجد من سعد أصدق معبر عن أمانيها ومطالبها وأفصح ناطق عن آلامها وشكواها وآلاف من الابطال الراقدين فى ظلمة الدهر يتاح لهم منه مجدد لبطولتهم باعث لمجدهم الملحود . وليس

العظيم هو أكبر الناس عقلا فحسب بل هو أسماهم مقصدا وأشرفهم غاية وأقدرهم على التحليق في الاجواء العالية . والعقل أشبه بالضوء ليست له غاية اخلاقية ولكن الاخلاص هو الذى يجعل للعقل الكبير قيمة ولذا فان عظمة سعد قائمة على صخر مرضم لا تؤثر فيه معاول الهادمين لان أساسها العقل الكبير والاخلاص العميق . ومادامت نوادر صفاته باقية لا يعتورها التبديل فعبثا يحاول الا فاكون النيل منها . وليس يكربنا ان غابت وجوه عظمته عن الاغمار الاغبياء من كل خاوى النفس فاتر الروح ولئن كانوا ينقمون عليه صلابته ويجيلون الالسنة فى تشدده ومتانته فان هذا لمما يزيدنا يقينا ببطولته . فما كانت الصلابة يوما مما لا يوصف به زعماء الاحزاب العظماء ولئن كان قد انفض من حوله كل موصوم الوطنية متهم المأرب فان هذا مما يزيد عرش ملكه استقرارا فى القلوب ويجمع حوله العناصر القوية المخلصة خالية من الاخلاط والشوائب . ولئن تخونه الاتباع ونال منهم الكلال والاعياء ورأوا ان الطريق طويل والغاية بعيدة فانه سيمضى وحده . فهو من

نفسه الكبيرة في جيش لهام وجمع ضخم . ومن تأبيه وعزته في معقل أشب متعاسر . وقديما كان البطل أشد الناس أقداما على المكروه واقتحاما للمخاطر بل هو الذى يتقدم وحيدا الى الهاوية التي تكمن فيها أهول المخاوف لانقاذ وطنه

ان تلك الوفود التي تتسايل من حواضر القطر ومدنه وقراه وكفوره هي دليل حياة مشرقة ستنجلي عنها احلاك الحوادث ولا يصغر من شأنها الا من كان يود لبلاده الخراب والاستعباد الابدى . ويوجد فارق كبير بين الايحاء الطبيعي للبطل الى اذهان الشعب الذى تنطبع على قلوب أفراده صور منازع البطل وأمانيه فيلقى اليه المقادة طائعا مختارا مقرا بنبله وفضله . وبين ارغام الشعب على قبول فكرة خاصة - ذلك الارغام الذى يجيء من جانب الحكومات ولئن كان الاول من أجمل مظاهر تقديس الشعوب لرجالها العاملين المخلصين فان المظهر الثاني مما يبعث على الحزن والقلق لانه يشل قوة الشعب ذلك الشلل الذي يسمونه تداهيا بالنظام ويسبب الجمود الذى يخلع عليه اسم الحكمة

ويدعو الى التفريط في الحقوق المقدسة الذي يعرف بالاعتدال وهو ينضب موارد التفكير الحر ويطمن الامة في صميم رجولتها وانفتها وأن وراء عواطف الجماهير السريعة التأثر والانفعال عقلا اعمق من عقل ذوى الفتور والنظرة المقررة . ومن يتعمق في تفهم نفسية الجماهير يمكنه ان يصل الى المعنى الجدى الكامن وراء لجاجهم وانفعالاتهم . ومن الخطأ ان نقيس حركات التاريخ بمقياس العقل المدرك ونهمل جانب الخوالج والخياليات وتأثيرها في أرواح الجماهير . واسمي مزية لرجال التاريخ هي استجاشتهم للعزائم واثارتهم لرواقد الاحساسات ولذا كان تأثير روسو أوسع مدى وأرمي أطرافا من تأثير فولتير وان في قولهم ان صوت الجماهير من صوت الله لمعنى مستدقا أعمق من ان يدركه الزارون بالجماهير والذين يجهلون ان مشاعر الجماهير الصافية البريئة من الغايات أسمى من كل منطق خسيس مسف . وما دام لا يمكن لكل انسان ان يكون ذا رأى خاص ومذهب مبتكر وعقيدة مختلفة وما دام هناك رجل كبير العقل مخلص جاد وآخر كاذب مستخف فان

المساواة مفقودة ، وليس هناك من عارف أن يقودنا أكبرنا روحا وأخلصنا سعيا . واذا أصبح لكل انسان من نفسه دليل وقائد فان هذا مما يرخي أو اصر أى مجتمع مهما كانت قوية متماسكة ويسوقه الى أشنع حالات الفوضى وأليست الحياة معركة أبدية كبيرة ونحن كلنا جنود نحارب بقلوب ملؤها الحزن أو بقلوب مفعمة بالشر وان كنا نجهل الغاية البعيدة لهذا التقاتل والتناحر . فلماذا لا نسلم قيادتنا الى أكفأ قوادنا وأوفرهم اخلاصا ونسير تحت لوائه الخفاق ؟

قال شاعر خالد (اننا نحيا بالحب والاعجاب والاحترام) وأمامنا الآن عظمة خالية من الشوائب ستتبدد السحب المحتشدة فى جونا المتردى بالغيوم فنظهر فى نصوعها وجلائها فلنثبت للعالم اننا خلقاء بالحياة الجليلة بحبنا واعجابنا واحترامنا لتلك العظمة عظمة سعد زغلول



الفصل الخامس

مما يؤثر عن الذين لاقوا كبار المصلحين وارباب المذاهب الجديدة وزعماء الثورات العكرية والانقلابات الاجتماعية امثال نابليون بونارت وميرابو والسيد جمال الدين الافغاني والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وامثالهم من الزعماء والقادة ان المنصتين الى احد هؤلاء العظماء كانوا يحسون ان وراء الفاظه معنى خفيا هو اروع واجل من اعظم ماينطق به من الصواب والحكمة . وخلف اشاراته وكلماته قوة كامنه وسرا عجيبا لا يعرف كنهه وما هيته ولكن يحس اثره ومفعوله . فهو في ذلك ضرب من الكهرباء والمغناطيسية . وكذلك لما الف النابغه كارليل « تاريخ الثورة الفرنسية » الذي شهد العالم أنه أدق وابرع ما أخرج للناس في وصف ذلك العهد فتناول سيرة « ميرابو » فصورها للناس صورة حية تتفزز تكاد تلمس باليد وتوشك ان تثب من الصحيفة فتمشي على وجه الارض انسانا حيا ناطقا — صاح النقاد صيحه واحدة « أين هذا من ميرابو الحقيقي ! » لقد عجز كارليل —

وما هو الا بشر — عن تصوير ذلك المعنى الخفى — ذلك السر العجيب — تلك القوة الكامنة — تلك المغناطيسية والكهرباء — التى يصح انما الان ان نسميها « الشخصية »

هذه الشخصية التى هي قوة مستكنة كامنة تؤثر فى قلوب من حولها تأثيرا مباشرا بلا واسطة بمجرد وجودها هذه القوة المتعذرة الوصف والتكييف والتي يمكن تقريبها الى الافهام بانها أشبه شيء بروح او طيف يكمن في فؤاد البطل يوحي اليه ويلهمه ويحثه ويدفعه ويجعله غنيا بنفسه عن المؤازر والمعاون ويتركه وكأنه قبيلة فى فرد وأمة في شخص — هذه القوة الهائلة والنار المقدسة التى نزلت من السماء على افئدة اعاظم الابطال ممن ذكرنا آنفا فرفعتهم بقوة لهيبها الى مقام القديسين والملائكة — هى أيضا مما أراد الله ان يمتاز به زعيم الامة المصرية وبطل النهضة المصرية سعد زغلول باشا .

ان صاحب مثل هذه الشخصية ينال انتصاراته بغزيرة تفوقه وسبقه وبفضل تغلبه وسيطرته وليس بحد الحسام ولا بقذائف المدفع بل السر فى انتصاره هو ان

مجرد ظهوره على مسرح الدنيا يبدل صورة الاحوال ويقلب نظام الامور والمسائل . لقد جاء في اساطير اليونان انه لما سئلت (ابولي كيف عرفت يا ابولى ان هرقلا اله اجابت «لاني عند ما وقع عليه بصري انشرح صدري واطمأن قلبي . وهذا ما لم أحسه حينما ابصرت « تيسيوس » ولذلك طلبت ان اراه يصارع الابطال فى حومة الوغى أو على الاقل يركض افراسه فى المضمار . اما هرقل فلم ينتظر فرصة الصراع الجلاد ليثبت تفوقه وغايته كلا . ولكنه نال الظفر والنصر سواء أكان واقفا أم سائرا أم قاعدا أم على اية حال غير ذلك»

هذه الشخصية هي قوة طبيعيـة كالحرارة والضوء فاذا هى عملت فانما الطبيعة باكلها معها تعمل وتشترك واياها تساعد وتساند . واذا كان الرجل الاعتيادى الضعيف يكون دائما مفكك الصلة بالعالم الذى فيه يعيش فان البطل القوى صاحب هذه الشخصية يري كأنه يحيى بنفس الروح التى تحيى بها الـكائنات وينبض فؤاده على نبضات قلب العالم وكأنك تبصر فيه أحد القوانين والنواميس التي تضبط مسرى النجوم والافلاك وحركة المد والجزر . ولست

ادي في مسألة تأثيرنا وخضوعنا لشخصية هذا الانسان دون غيره الا امرا بسيطا جدا لا يختلف عن نظرية الجاذبية التي تشمل العوالم والاكوان جميعا — أعني انجذاب الاصغر الى الاكبر . بيد ان مقياس الصغر والكبر والضؤولة والعظمة في الانسان هو مقدار ما فيه من عنصر الصدق والحق . فالرجل الطاهر النقي المفعم بروح الحق والنزاهة والاخلاص والايمان يتسلط على من هم أحط منه وادني فيخضع ارواحهم بما هو أشبه بالتنويم المغناطيسي اذ تخشع امامه هذه الارواح وتطاطيء وتفقد قوة الدفاع الا ما كان منها ينطوي على قسط من العظمة غير زهيد فهذا ينهض بجاذبية الشخصية العظيمة نحوها ويسمو اليها . وهذا هو ناموس الطبيعة العام فان الارواح العليا اذا عجزت عن ان ترفع الى مقامها الارواح السفلى شلت حركتها وخدرتها وأخمدت قواها كما يصنع الانسان بالحيوانات السفلى . وكم رأينا عن شخصية عظيمة كان لنا في قوة نفوزها وسلطانها مصداق ما لم نزل نسمع من حكايات السحر والسحرة . ولا غرو فانك لتبصر صاحب

الشخصية الكبيرة كانما يتدفق من عينيه تلقاء من حوله تيار نفوذ وسلطان — سيل من الضياء الثاقب يسرى الى الجماعة فيفشي فيهم مبادئه وافكاره ويصبغ جميع الاحوال والحوادث بصبغة روحه وذهنه . ولما سئل مرة احد الساسة (باية حيلة استطعت ان تستميل خصمك وتحمله على ماقد أردت ؟) أجاب (لم استعمل حيلة سوى تأثير الذهن الاقوى على الاضعف) اوليس في طاقة يوليوس قيصر مكبلا بالاغلال والسلاسل ان يتملص منها فيقلها الى يد السجان

ان البطل ينفث روحه فى كل من حوله وكل ما هو واقع فى متناوله من الحوادث والاحوال فهو كالمطر الغزير يحيي موات الارض وكالعين الثرة تترك الصحراء بستانا وان روحه المتدفقة الفياضة تنفسح حتى تشمل اوطانه من أقصاها الى اقصاها وتحدق بها احداق السوار بالمعصم فتصبح هذه الاوطان كاساس تقوم عليه شخصيته الهائلة وكميدان تجول فيه فيالق عزيمته وكتائب نفوذه وهمته

هذا البطل اذا صادف ظهوره أوقات التطورات

الاجتماعية والانقلابات السياسية كان له الاثر الاقوى فى تعجيلها والاسراع بها الى النضج والتكون فظهوره في هذا الوقت الحرج هو كتوافر الدفء المنعش والجو الموافق الملائم واصطلاح هذا وذاك على انضاج الغرس وازكائه وايصاله الى أقصى غاية الانتاج والاثمار — فهذا الجو الملائم هو الواسطة الوحيدة لتحقيق هذا الغرض ولن يقوم مقامه ولن يؤدى وظيفته كل مايخترعه الزارعون من وسائل الانتاج الصناعية

لقد جاء بطل النهضة الحالية — سعد زغلول — في عهد تطور وانقلاب مازالت الاسباب الطبيعية والعوامل الكونيه ترشح له وتهيء وتمهد حتي بلغ الدرجة التي كان عليها ساعة ظهر ذلك البطل العظيم وبرز من مكمنه الى ميدان العمل ولم يك بعد قد بلغ تمام اختماره ونضجه. فلما برز ذلك البطل بجلال شخصيته الكبرى وروح بطولته العظمى أرسل شعاعا من نوره المقدس على تلك القوى البطيئة المتلكئة فاذا هي احتدمت وتوقدت — وسلط على تلك العناصر المصطدمة المتنافرة شعبة من روح ذلك النظام

والوحدة الذي يملأ كيانه فاذا هي قد تآلفت وانتظمت
وعادت قوة هائلة عظيمة جديرة أن تنفض عن اعطافها
غبار الكسل والتبلد وتقوم في الحق قومتها وتثور في وجه
البغي والعدوان والعتو والطغيان . فلا غرو ان قلنا ان سعد
زغلول هو - على هذا الاعتبار - صاحب هذه الحركة مؤسس
هذه النهضة وبما انه هو القادح لهيبها من زناد الحوادث
والمستثير ثروة تبرها من مناجم المقادير والمرسل جنينها
من بطون الليالي ولولاه ما قامت النهضة حين قامت ؛ وهب
ان لديك أكواما مكدسة من الحطب فهل تراها تشتعل
من تلقاء ذاتها ؟ كلا ولو بقيت مليون عام . فاما اذا أرسل
الله عليها شرارة من ملكوته في صورة بطل عظيم كسعد
فانها لا محالة مشتعلة فمتأججة حتى يستطير لهيبها ويستفيض
سناها ويسمو الى عنان السماء شعاعها ويطبق الارجاء نورها ه
فالرجل العظيم شهاب يسقط من السماء . والناس في انتظاره
كالحطب في انتظار الشعلة فما هو الا أن يسقط عليهم من
السماء حتى يلتهبوا ويضطرموا

ان العظـــيم شهاب يستضاء به

وصارم من سيوف الله مسلول

وكذلك الصدق والاخلاص والايمان هو أكبرقوة في العالم وهو مبعث الحياة ومنبع الرفعة وما زال للامة رقي في درج الفضل وتعرج الى ذري المجد ما دام مذهبها اليقين ومبدؤها الايمان

الرجل العظيم ضروري لنهضة الامة من الضعة الى المجـد وخروجها من الظلمات الى النور ومن العبودية الى الحرية . فالامة لا تستطيع أن تفعل ذلك الا بمعونة البطل الذى لن يسد مسده كما اسلفنا اية واسـطة اخري من محاسن الصدف والظروف او المزايا الجغرافية والمناخية والجوية . نضرب مثلاً على ذلك جزيرتي « ساردينيا » و « كورسيكا » بالبحر الابيض المتوسط — فقـد آثرتهما الطبيعة باحسن مواقع الجغرافية واغزر منابع الثروة المعدنيه والزراعية وقد لبثتا برغم ذلك مجهولتين مهملتين على مدى الحقب مسافة ثلاثين قرنا من تاريخ أوربا . هاتان الجزيرتان لهما عادات وقوانين : ولهجات شتي ولا لغـة . وروايات

حروب وغارات ولا تاريخ . واحتياجات وثروة ولا تجارة. واخشاب ومواني ولا اساطيل . واساطير ولا شعر . وثارات واوتار ولا قضاء وجمال مناظر ولا تصوير واغاريد بلا بل ولا موسيقي هاتان الجزيرتان تقعان في بؤرة مدنيات الشعوب الاوربية باكرم بقعة واحقها دون غيرها باحسن الرقي المادى والعقلى والتجارى والسياسي . وهما بالرغم من ذلك قد نامتا اطول نومة فوق معزف التاريخ الموسيقى الرنان . فالى ما ذا ينسب ذلك السبات التاريخي ؟ يقول العلماء سببه عدم الاستقلال والرسوف في قيد العبودية اذ ما برحتا تابعتين لبعض الدول الاوروبية . انا لا اعارض في ذلك ولا اناقش ولكني اقول لماذا بقيتا فى الرق والعبوديه ؟ لماذا لم تنالا الاستقلال وتظفرا بالحرية . واجيب على الفور ذلك لانه لم يظهر بهما ذلك البطل العظيم الهائل الشخصية المملوء نجدة وهمة وايمانا واخلاصا — القادر على اشعال قلوب مواطنيه بلهيب الوطنية والغيرة والحمية والطموح الى الاستقلال والتعطش الى الحرية . ما اظن أهالى «سردينيا»

و « كورسيكا » قد خلقوا من طينة أخبث وأردأ مما خلق منه سائر الشعوب الاوروبية . او انهم ألأم عنصرا من نمت الشعوب أو اخس جواهرا — ولكن اجود كومة من الحطب لا يمكن ان تشتعل — كما قلت — من تلقاء ذاتها بل لا بد ان نسلط عليها ثقابا او شعلة . ولا مشاحة في أن الطبيعة قد ضنت على هاتين الجزيرتين طول هذه الحقب المديدة الخالية من الوطنية اللازمة لها بشروطها الاساسية

ان البطل يكون له من قوة التفكير ونفاذ البصيرة ما يسير به اغوار الاحوال الاجتماعية والسياسية في وطنه حتي يمس موضوع الحاجة ويلمس مكان الالم ويدرك من الشؤون والمسائل ما قد اختمر ونضج واصبحت تتمخض عنه احشاء العصر فيرى ان هذا وحده — لا سواه — هو لباب الحق بالنسبة لجيله وهو امس حاجات امته وشعبه فليس غير البطل الذى يبعثه الله لشعبه يستطيع ان ينفذ ببصره الى هذه الحقيقة الكامنة المخبوءة الآخذة في دور العاجل النشوء والتكون في ضمير الغيب وفي طي المستقبل — ليس غير البطل يستطيع ان يتبين هذه الخطوة الضرورية

التي تهم بها الامة ويتحفز لها الشعب ويشمر . هذه في نظر البطل النهضة أمام العصر وقائد الجيل النافذ البصيرة الصادق النبوة : وان قوله الصدق واعتقاده الحق ومنهاجه الرشيد وسيرته الصلاح وسراطه الهدى . وسخف من بعض الافراد وحماقة وغباء وعماية ان يحملوا بطل النهضة على اتباع آراء الغير ممن يخالفونه ويعارضونه وما كان البطل قط ليتنزل الى ذلك . وما كان له ومعه عقله وحزمه ان يحيد عن الحق الى الباطل وعن الهداية الى الضلال . وما كان للشمس ان تشرق من المغرب ولا للسيل ان يتدفق من اسفل الى أعلى ولا للقمر ان يعطل طوافه حول الارض ولا للعذب الفرات ان يملح ولا للملح الاجاج ان يعذب ولا للذهب ان يحور الارض رصاصا ولا للسكر ان يصير ملحاً وقد قلنا ان بطل النهضة هو في كيانه وجوهره وفى حركته وسيرته كبعض نواميس الكون وقوانين الطبيعة لا يغير نهجه ولا ينكب عن سراطه الا بعد ان يفسد الكون ويتبدد نظام العالم وتنشق السموات والارض وتخر الجبال هداً . فالبطل نبي العصر يأمر فيطاع ويسير فيتبع وخليق بالشعب

ان يسير على نهجه . ويهتدى بهديه . ويقتدي به في جميع اعماله . مستظلا بظلة الظليل الوارف وجدير بالبطل العظيم الذى يقود شعبه الى ساحة المجد . ان يكون يقظا بصيرا ويجمل فنون براعته . وشواغل باله في سكونه وحركته وقفا لخدمة امته والوطن العزيز الذى يدافع عنه انه من غير شك اذا واصل عمله . وسار الشعب على منواله مطيعاً لاوامر العالية . تطيعه الطبيعة ايضا وتردد له الحان الانتصار ويرون النصر من قاب توسين اوادني ـ وما هى الافترة من الزمن حتي يصبحون احرارا في بلادهم وتصبح بلادهم . هادئة مطمئنة يرفرف عليها علم الاستقلال والحرية حيث لايكون فيها استبداد وتزول دولة الاغراض وتصير الامة كالرجل الواحد ذى العزيمة الواحده ـ وهكذا شأن الامم التى تسير في طريق الرفعة لاتزعجها المصائب . ولا تدهورها الايام ومهما العبت بها امواج الكروب . ولعبت بها عباب الحوادث تراها جريئة على الانواء والعواصف جلدة على الاهوال والمصائب صبورة على اصطدام العناصر وثورة الزوابع ـ تندفع بها في بحر ثائر من الخلاف والشقاق والعناد

والخصام . والنزاع والصدام . تعاني البلاء وتقاسي المحنة والشقاء . حتى تصل الى ساحل الامن والسلام والفوز والظفر

بسم الله مجراها ومرساها – هذه سفينة الامل تسير بنا فى موج كالجبال قد حفتها عواصم الخلاف وزوابع الفتنة وكمنت لها تحت جبين المياه الطاق الوضاح صخور الغدر والخيانة ورمال المكر والدهاء وداهمتها شياطين الكفر والجحود تساورها من بين يديها ومن خلفها ولكن لا بأس عليها ولا ضير والله وليها وحارسها والمبدأ دقلها والاخلاص شراعها ولهيب الوطنية الصادقة مرجلها وقوة الايمان والغيرة والعزم والحمية ريحها وأربعة عشر مليونا من الايدى الجادة الكادة مجاذيفها وشعب مخلص النية صادق العزم ركبانها ستسير بقوة الحق الى ساحل الحرية والفوز والنجاة وهنالك تطمئن نواها . وتستقر عصاها . « وسيق الذين آمنوا الى الجنة زلفا حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها آمنين »

***

وكذلك لبثنا أجيالا كأكوام الحطب المكدسة الجامدة

الهامدة الميتة ننتظر تلك الشعلة المستعرة بلهيب العبقرية المقدسة ، نرتقب نزولها من السماء لتوقظ غفلتنا وتنبه رقدتنا — وها هي قد نزلت اخيرا وقد اشتعل بشواظها الجانب الاعظم من اكداس الحطب الهامدة — فما بال فئة تتذمر وتتسخط ؟ وما لها تتعقب وتتغضب ؟ وتنتقد وتتعقب وما هذا العمى أو التعامى ؟ وما هذه الحماقة أو التحامق ؟ وما هذا الجحود والنكران وما هذه الصدور الحرجة والاعطان الضيقة ؟ وما لقومى يريدون أن ينظروا البطولة نظرتهم الى الشخصيات اليومية العادية ويستعملون في قياسها وسبر اغوارها تلك المقاييس والمسابير التى يختبرون بها الذهنيات المألوفة الشائعه والنفسيات المعروفة المنتشرة . وكان حقا عليهم أن يعرفوا ان البطولة لا تقاس بمقاييسهم العادية بل لا تقاس البتة لانها أعظم من ذلك واهول بل لانها لا تحد ولا تحصر . ومازال البطل العظيم اذا ظهر في شعب أو أمة كان موضع الدهشة والحيرة فيهابه اقوام ويزعر منه آخرون ويبغضه جماعة ويره البعض شرا وآفة والبعض آية وعيد وتهديد ويراه الجميع لغزا واحجية وقد قال هيجل في هذا

المعني . « الرجل العظيم يجشم الدنيا مشقة القيام بشرحه وتفسيره لأنه لغز من اصعب الالغاز » وبعد هذا كله وبعد حكمة هيجيل البالغة يأتي حماقه المتعاقلين المتحذلقين الآن يحملوا شخصية البطل العظيم الى معملهم العلمي فيضعوها على المشرحة ثم يشرحوها كما تشرح الجثث وبعد ذلك يحللون موادها تحليلا كيماويا ويزنون عناصرها وزنا كيماويا ويقدمون اليك بعد ذلك حسابا كيماويا عن نتيجة تجربتهم بالجرام والملليجرام . مرحى مرحى ؟ ما هكذا يا سادة تقاس العظمة ولا هكذا توزن العبقرية ولا قال احد ما ان أعاظم الابطال يقاسون بالمسطرة والبرجل ويوزنون بالمثقال والدرهم البطولة شيء عظيم هائل لا يستطيع امرؤ أن يتلقاه الى بالهيبة والاحترام والخشوع والاجلال . والبطوله سر رهيب كالحياة ذاتها ترغم كل انسان على مخافتها بالخضوع لها . ولا يجرؤ على انتقادها او المعتوه والابله والمغرور والسفيه والاحمق ومن اصر على تخطئتها وانتقادها فلن يجد مكانا أصلح لذلك من مستشفى المجاذيب : وما نقوله لناقد الحياة نقوله أيضاً لناقد البطوله

قل للذي يأخذ على الرجل العظيم عناده واستبداده وخشونته وغلظته وقسوته مابالك لا تذم في نظام الكائنات البركان والاعصار والصاعقة والزلزال والعاصفة والطوفان — فكما ان هذا من عناصر الكون المتممة له وهي لازمة له لزوم اضدادها مما تراه أنت حسنات ومنافع — كلاهما سواء في الفضل لتساويهما في اللزوم — فكذلك ماتراه أنت رذائل في البطل وآفات هو لازم لكيانه وقوامه لزوم فضائله وحسناته اذ من النقيضين معا وليس من احدهما دون ثاني تتكون البطولة. وما ذا ادل على صدق هذا القول مما لا يزال يشهد به التاريخ من اتخاذ الطبيعة وسائل القسوة والغلظة لبلوغ ماتريده من غايات الصلاح والخير وأوضح مثال على ذلك الثورة الفرنسية التي بالرغم من انها كانت سلسلة فظائع وشنائع فقد كانت هبة الامم الوسني من رقاد كاد يخنقها أثناءه كابوس الظلم والاستعباد وصيحة الشعوب ثارت من هجعة شبيهة بالموت فبدأت تشعر بأن هذه الحياة الدنيا ليست بأكذوبة ولا أبطولة. وان عالم الله ليس بمكينة تساس بالمكر والدهاء.

قال كارليل « انا انرحب بالثورة الفرنسية ترحاب الفريق بالصخرة العبوس — فهى على عبوسها ووحشتها واقفارها معاذ من الهلاك وعصمة من التلف . وهل كانت الثورة الفرنسية الا وحياً حقا من الله ورسالة صادقة وان راعت القلوب وازعجت الخواطر — أجل — بالثورة الفرنسية انتهى التصنع والزور والغش والخداع والباطل الاجوف الفارغ — انتهى شر كثير وفساد عظيم . فالثورة الفرنسية ثمرة حرة من ثمار هذا العالم وهي حق وان كان حقاً متلفعا فى شواظ جهنم — بيد انها على كل حال حق لا باطل — وهى رسالة الله الى الارض صدع بها صوت من الرعد القاصف او دوت بها نفخة اسرافيل فى الصور

أنظر بعد ذلك الى ماقاله نابليون بونابرت ممثل الديموقراطيه وزعيم الشعب وبطل الحرية « انما ادركت غايتي وبلغت مرادى بقوة النفوذ » ثم انظر الى نظريته في النفوذ ماذا قال فى ذلك « لا أعرف لا فوتين لتحريك الرجال الرهبة أما الحب فهذا سفه وحماقة وبله وجنون وأما الصداقه فهذا اسم بلا مسمى . هذا واني شخصيا لا احب انسانا بل لا أحب

اخونى ولعلى اميل قليلا الى يوسف اخي بحكم المادة ولأنه ليس مني وقد أحب (ديروك) ولكن لماذا؟ لاني معجب بصرامة حده . ومرارة جده وفي اعتقادى انه ماذرف من عينه قط دمعة . هذا واني واثق انه ليس في الدنيا من يحبنى او يخلص لى - فما دامت لى الدولة والسلطان فليس اكثر يدعون مودتي تزلفا وملقا فان ركدت ريحى انفضو من حولى . الا فلتعد عن الرأفة والرقة واللين للنساء اما الرجال فلا بد لهم من الصلابة والقسوة والصرامة اذا تعرضوا للحرب اوالسياسة

فكيف بعد هذا كله يعيبون على بطل النهضة المصرية صلابة خلقه وصرامة طبعه؟ ومتي كانت الملاينة والمحاسنة والملاطفة والمجاملة والتسامح والتساهل والاعتدال من شيمة ابطال الجهاد ومحرري الشعوب من ربقة الاستعباد وفرسان ميادين السياسة المغامسين حومة الطعان والجلاد

البطل لا يسأل عما يفعل فان أساس بطولته وقوامها وسرها هو ذلك الاعتزاز بالنفس والاستبداد بالرأى الذى به يدوس على كافة الاعتبارات والتقاليد اندفاعا وراء أغراضه

وبغيته — مبتذلا فى سبيل ذلك الامن والراحة والسلامة لا يرده عقبة ولا يثنيه مانع — ولكنه يسير الى غايته على عزفات موسيقى روحه الجياشة الصداحة ولو ثارت حوله الزوابع وطارت العواصف وزمجرت القواصف واوشك الكون ان يتحطم وينهدم . ولذلك قد يكون فى البطولة احيانا ماينافى باللياقة ويخالف بالآداب ويعارض الحكمة والفلسفة ولكن البطولة لا تعبأ باللياقة ولا تحفل بالآداب ولا تأبه بالفلسفة ولكن لأنها قبل كل شيء متكبرة مختالة تياهة جبارة . وعلى الرغم من كل هذا فالواجب علينا جميعاً اكبارها واجلالها وذلك لانها محفوفة من جلال العظمة والروعة بما يجب أن يغض من ابصارنا وينكس من رؤوسنا امامها ومازال في كل عمل من اعمال البطل ماعلا صدر ناهيبة ويقعدنا عن تعقبة واقتفاء اثره وانتقاده وبحثه ففعلة البطل هى فعلة الله يأتيها على يد البطل وما كان لبشر ما مهما ظن نفسه عظيما أن ينالها بذم او انتقاص او نقد — وليس فى صنع الأله لعبيده مغمز او مطعن . والبطل متى اندفع بقوة الله وبالهامة ووحيه الى اتيان فعلته لم

يبال بصحة ولا حياة ولا اخطار ولا اهول ولا بذم ولا تأنيب ولا بعداوة ولا بغضاء ولا بوعيد ولا تهديد وتراه موقنا ان ارادته اعلى واجل واشرف وافضل من جميع من ينبري ومن سوف ينبري له من اهل المعارضة والمناوأة

البطولة هي انقياد واذعان لدافع باطني في ضميره فرد من الافراد فليس أذن يتأتى ان تظهر حكمة هذا الدافع وصوابه لسائر الناس مثلما تظهر لهذا الفرد اذ كان كل امرىء انفذ بصرا وابعد نظرا في منهاجه المختص به دون غيره فاذا سخط اقوام على البطل فانما هو سخط موقت لايلبث ان يزل متى انجابت سحب الشك والريبة عن أعمال البطل فتجلت حقائقها مشرقة بلجاء ناصعة بيضاء وحينئذ يعلم الناس ان فعلة البطل كانت مجردة من الاغراض والاهواء بريئة من كل اثر للشهوة والانانية بل هادمة للشهوة والانانية مملوءة بالايثار والتضحية . ولكن في ذلك لذتها وهو سبيل أنجاحها

الاعتزاز بالنفس والاستبداد بالرأي عنصر البطولة وجوهرها . والاعتماد على النفس هو شيمة النفس الثائرة على الاكاذيب والاباطيل . المتمردة على الظلم والطغيان

وشيمتها القدرة على احتمال كل ما في طاقة الظلم والطغيان أن يرسله عليها من ضروب عذابه ومصابه . وشيمتها ايضا ترفعها عن الاهتمام بالصغائر والحقائر واحتقارها احتقار الناس اياها . وشيمتها المثابرة والثبات والجرأة والاقدام وصبر لا ينفد وجلد لا يهن وشيمتها الاستهزاء بغرور الحياة وحقارة الدنيا وما زالت تجد في اهتمام الناس بصيانة الصحة والمال وشدة المحافظة على الارواح وعلى مصادر اللذات والافراح اوسع مجال للضحك والتهكم والسخرية .

ولكن حساد البطل من ذوي الحقد والضغينة ينكرون هذه الحقيقة الظاهرة اذ يعزون كل أعمال البطل الى حاجة في النفس وهو في الفؤاد وباعث شخصي ربما كان دنسا خبيثا . ومن ثم يحكمون على البطل باللؤم والفجور والخسة. امثال هؤلاء السخفاء الاغبياء ممن اكل الحقد قلوبهم ونخب الحسد افئدتهم لا يرون في ابطال العالم الذين هم بناة المجد والعلاء ومشيدو المدنية والحضارة واعلام التاريخ المؤلفة منهم سلسلته الذهبية الا اشرارا فجارا بغاة طغاة لا فضل لهم ولا خير فيهم وانهم لم يخدموا سوى اغراضهم الذاتية

واهوائهم الشخصية ولم يبلغوا ما بلغوا الا بالكذب والغدر وبالظلم والجريمة والواقع أن هؤلاء الافاكين لم يسلم من ألسنتهم بطل ما حتى ولا اساطين العالم وقادته واعلامه — فلقد قالوا عن الاسكندر الاكبر انه مصاب بجنون الغزو والفتح لانه دوخ بلاد اليونان وفتح آسيا — وزعموا أن الولوع للشهرة كان باعثة الوحيد بدليل ان اعماله ادت الى الشهرة ومثل هذا قاله أولئك السخفاء فى بولوس قيصر وهانيبال والسفاح وتيمورلنك وصلاح الدين وشارلمان ونابليون فأثبتوا بحججهم الواهية السخيفة ان ائمة العالم اشرار فجار مجرمون فينتج ضمنا من هذا انهم هم (اعني اولئك السخفاء) افضل واشرف من ائمة العالم وقادته لبراءتهم من تلك الجرائم والقساوة قلوبهم من تلك الاهواء اللئيمة والشهوات الاثيمة — والدليل على ذلك انهم لم يغزوا آسيا كالاسكندر ولم يسقطوا روما كهنيبال ولم يدوخوا اوروبا كنابليون . ولكنهم يعيشون ويتركون غيرهم يعيش وينعمون بالحياة ويتركون غيرهم ينعم . ومن حماقة اولئك السخفاء انهم اذا حاولوا انتقاد البطل كانت

عنايتهم بتأمل الجانب العبقرى وخلال البطولة اقل من عنايتهم بتأمل الخصال الشخصية التافهة العادية التي يشارك البطل فيها جميع خلق الله بل حيواناته . وما دام البطل لا بد له من أن يأكل ويشرب وينام ويعبس ويبتسم ويضحك ويبكى ويواصل ويقاطع ويحب ويكره وتتعاقب على مزاجه الاهواء والعواطف والنزعات المختلفة التي منها تتكون الطبيعة البشرية وبدونها يكون المخلوق اما ملكا أو شيطانا — أقول ما دام البطل شأنه فى هذا شأن سائر الخلائق فسيجد الناقد السخيف فى صفحه عرضه ألف مغمز ومطعن . ومن ثم قيل ان المرء لا يكون البتة بطلا في عين خادمه لان الخادم لا يكاد يبصر مولاه الا في الحالات الاعتيادية التى يشبه فيها سائر الناس ويشبه فيها الخادم ذاته ولكن لا عار على السيد فى ذلك فما سببه ان السيد ليس ببطل بل الخادم ليس الا خادما . وما دام رجال التاريخ يتولى نقد اولئك الخدام الانتقاديون فيسخرجون من سوق النقد باخسر الصفقات وتشيل كفتهم في الميزان أو يبوؤن الخزى والعار ويهبطون الى ادني من مستوى أولئك

النقاد أنفسهم ، فلا ينس القارىء أن ترسيتيس الوارد ذكره في الياذة هو هوميروس كان مولعا بسبب الملوك وشتم الامراء — لم يكن مقصودا على ذلك العهد الخرافى القديم بل موجودا في كل عصر لم يخل منه جيل من الاجيال. ولكنه — مع الاسف الشديد — لا يلقى فى كل جيل ما لقيه أيام هو ميروس من عقوبة الضرب بالعصى والسياط على أن آفة حسده وحقده هى الشوكة الدامية التى كتب عليه ان يحملها فى جلده . والجمرة الحامية التى قيض له ان يدفنها فى كبده . وحسبه بعد ذلك غيظا وكمدا ان آراءه السديدة وانتقاداته الوجيهة ستذهب بعد مجهوداته العظيمة هباء منثورا .

***

انما ألهم الناس ان يميتوا هذا البطل نائبا عنهم لان الله سبحانه وتعالى كان قبل ذلك قد اجتباه واختاره وعينه ناصرا ومؤيدا لحقيقة من الحقائق الكبرى وناشرا مروجا لها عن تمام اعتقاد لها فى اعماق نفسه بحيث يتجلى لاشد معارضيه وألد خصومه انهم انما يطاولون الطود الشامخ

الباذخ ويساجلون التيار الدافق الزاخر وانهم واياه

كناطح صخرة يوما ليفلقها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

أجل يتجلى لاهل المراء والمعاندة ان امامهم صخرة تتفتت عليها بددا وترفض دونها هباء هجاة القحة وحملات الاعتداء من أحزاب المروق والفسوق ، فلا جرم ان تصبح هذه الصخرة الصلدة محل ثقتنا واعتمادنا وان يكون بذروة هذا الجبل الاشم اللائم بذؤابته أشعة كوكب الحرية منط أمانينا وآمالنا . وان تكون ثقتنا به بعد ذلك عمياء فلا يسأل عما يفعل اذ كانت روحه خلاصة ارواحنا ونفسه صورة مؤلفة من مجموع نفوسنا . وكان هو ذاته الوطن الذي يمثله وهو عنوان آرائنا ومبادئنا ونزعاتنا وعواطفنا يمثلها في صفحته الناصعة النقية أبين تمثيل وأصدقه وأبرأه من شوائب الاغراض والغايات وغبار التهم والشكوك والشبهات . فلا بدع عجيبا ان يجعله الشعب مقياس شعوره والمرآة التي يستبين في صفحتها صورة المثل

الاعلى من الهمة والواجب فيتخذها القدوة يصلح من نفسه احتذاء لمثالها وطبعا على غرارها وليشبهها ويحكيها. وهنيئا لهـذا الشعب الذى اختار من ذلك البطل رجـلا جزلا شديدا. صلبا جليدا. وليس كبعض الناس خيالا أجوف وشبحا فارغا تنفذ فيه اليد ولا تراه العين.

أن من أبين الادلة على بطولة سعد استغناءه بنفسه واستقلاله بذاته. وتلك شيمة الرجولة وآية البطولة. ان سعدا لهو الكنز الثمين والذخر العتيد والغنى الواسع والثراء العريض حتى لقـد يستحيل على الذهن ان يتصوره بحالة ضعف أو وهن أو عجز او خور او استكانة أو استخذاء او ذلة او مسكنة او احتياج الى معونة ناصر او مساعدة عضد مؤازر او افتقار الى أنس أنيس. أومسامرة جليس ومحال ان يتمثل للوهم وكأنه وحيد أو مستوحش أو فقير او معسر او شقى بائس. او قانط يائس. او حزين مغموم او مطرق مهموم. بل ان الذهن البشرى لا يستطيع ان يتخيله الا فخما ضخما جليلا جبارا متكبرا عزيز الجانب حمي الانف متحفزا طماحا مستعليا علي الاقران غلابا للخصوم

مفراحا ممراحا جذلان مستبشرا طروبا . طلق الجبين تخاله كوكبا مشبوبا ثم تراه فوق ذلك كله راسي الاساس واسخ القواعد موطد الاركان ثابت الدعائم لا تزعزعه الكوارب الكوارث . ولا تزلزل منه معظمات الخطوب والحوادث.

واي قوة في الارض تستطيع تهز من ذلك الرجل العظيم وقد تشبع باقدس فكرة وجاش قلبه با كبر امنية . بل اى غطرسة من جبابرة الارض تستطيع ان تكف من غربة أو تفل من حده بعد ما تمطر منه في حلبة الجهاد اعتق جواد سباح . وحلق منه في سماء النهضة الشماء اجرأ نسر طماح . وماذا تبتغى فئة المعارضة والمعاندة وطائفة الهزيمة والخزلان والذل والعار — ماذا تبتغي الفئة الضالة الاثمة من رفع اصواتهم بسخف القول وهزيانه . ايحسبون ان صرير الجنادب سيبلغ مسامع من قد استحوذت علي مشاعره نشوة ملائكيه من رحيق الحرية المقدس . لقد ارتفع البطل العظيم فوق منال تلك الاصوات الخبيثة منذ تناول الكاس الاهلية المصنوعة من ندي اجنحة الملائكه فانتهج في مراقب العلياء ذلك المنهج الذى سلكه من قبله

محرروا الشعوب ومخلصوا الامم وبات يفتعل الفرقدين ويطأ باخمصيه المجرة والسهى .

لا غرو ان يصبح سعد بعدما أفعم صدره بفكرة الاستقلال الملتهبة ولعبت برأسه سورة الكأس المقدسة وبحت نشوتها اعطافه قد اقتحم كل عقبة واستسهل كل صعوبة في سبيل الحرية

فمضى يعسف النجاء كما زل   ل من المنجنيق مردي رجام
أو كما انقض كوكب اوكما طا   رت من البرق شقة فى غمام

واضعا نصب عينه الغرض الاشرف الاسمي يدوس بنعليه كل ما يعترضه فى سبيله المجيد من كيد او دسيسة او تخويف أو تهديد بل لا يبالى نفيا ولا حرمانا ولا تجريدا ولا سجنا ولا جوعا ولا ظمأ ولا عريا ولا جميع آلات التعذيب والتمثيل مما هو شر مساويء عهود الارهاب والعصور المظلمة — كل ذلك جدير ان يتلقاه سعد ساكن الجأش منشرح الصدر باسم الثغر لان روحه العالية الكبيرة تأبي الآن تستخف بهذه العقوبات ازاء غرضها الشريف الانبل فتنعدم في نظرها هذه الآلامات

كما تنهزم جحافل الظلماء أمام أسنة الاشعة المشرقة بل ما اجدر روحه العظيمة أن تستلذ آلام تلك الفظائع فى سبيل الواجب المقدس وما زال ابطال الحرية من اقدم الازمان اذا نزل احدهم من بطن امه اخذ اخصر طريق الى موقف منا وأة الظلمة الجبابرة الطغاة ثم أخذ اقصر طريق من هذا الموقف الى المشنقة او المقصلة أو سيف الجلاد ثم تراه يتهافت على الموت كأنه الذ متعة النفس واشهي امنية الروح ؛ ولا بدع أن يفرح الابطال بالموت اذا وجدوا الحياة شرا من الموت

ابوا ان يذوقوا العيش والذم واقع
عليـــه فماتوا ميتة لم تذمم
دعاها الردى بعد الردى فتتابعت
تتابع منبت الفريد المنظم

ومن كانت هذه درجته من البطولة كان حريا أن لا يقشعر جلده الرقيق من أفظع آلات التعذيب وان لا تروعه النار المحرقة ؛ واللجة المغرقة . والمقصلة المزهقة ولا السيف المشهور . والكفن المنشور . واللحد المحفور .وقد

روى عن القس المتورع « انتوني بارسونز » من افراد الملة البيوريتانية الانكليزية انه لما قدمه جبابرة الكاثوليك للنيران فدنا منه لهيبها تناول قشا من بين يديه فوضعه على رأسه ليكون اسرع لسريان النار ثم قال « هذه قلنسوة الله »

وكذلك ترى أن أس البطولة هو الثبات على المبدأ وما رأينا ولا سمعنا عن بذ سعدا فى هذه الفضيلة . لقد رأينا من كان حوله يتلونون كل ساعة لونا ويتشكلون كل برهة شكلا تأثراً بالاهواء والمطامع وحرصا على ارضاء بعض الافراد أو متابعة الجماهير . والحرص على ارضاء الافراد ومتابعة الجماهير مناف للبطولة بل هو عكس البطولة ونقيضها اذ هو الخور والضعف المبين بينما البطولة هي القوة . هذا ومتابعتك الغير دليل على فرط حاجتك الى تأيدهم اياك ومساندتهم لك وعطفهم عليك . واحتياجك الي مثل هذا من الغير دليل علي ضعفك وعجزك عن القيام على قاعدتك واساسك . والرجل العظيم متي اقتنع بصحة رأيه وصلاح فكرته نفذها بلا ادني اهتمام باراء الغير بل نفذها على اعتبار انه هو وحده الحي العائش على

ظهر المعمور وان كل من حوله من اناس ليسوا سوى أحلام وأوهام . فان شئت ان تكون رجلا وتكتب في سجل البطولة فنفذ فكرتك وامض عزمتك والزم مذهبك واثبت على مبدئك واذا حمل ذلك الناس على الضجيج من حولك استنكارا لك واغتياظا منك فزدهم غيظا وكربا باستمرارك على خطتك وتماديك في مناهجك . وهنيء نفسك أعظم التهنئة لى انك اتيت شيئا عجابا وأمرا مستغربا مخالفا للمتبع والمألوف خارقا للعادة لانك قد ارتفعت بهذا عن مستوي جيلك السخيف البليد المغفل الاعمي المرين على بصره المطبوع على قلبه الراسف في اغلال المذاهب السخيفة الغبية . وقيود المبادىء القديمة الرجعية . ولقد روى ان فتى جاء مرة شيخه يستنصحه في امر قد هم به ولكنه كان يخشي عاقبته فقال له الشيخ نصيحتي اليك يا بني ان تفعل ابدا كل ما تخشاه وتخاف عاقبته .

وكذلك يتضح ان البطل لا يتزعزع ولا يتزحزح ولا يستمال ولا يستدرج ولا يرشي ولا يباع ولا يشتري . أجل ان الروح العظيمة لا تبيع استقلالها وعظمتها وشرفها

فهى لا يهمها طعام هنى . ولا شراب شهى . ولا لباس بهى
ولا مهاد وطي . ولا وثار طرى . اذ كان سر العظمة ولبابها
هو في الاقتناع بأن الفضيلة حسبها والمجد غايتها

ما سرها الاؤم والغضارة فى العيـ
ـش بديلا بالجـــد والقشف

وقد ما عرف عن العظمة ان الفقر حيلتها والزهـد
تاجها . وانها ما سرتها قط المكاسب والمغانم . ولا ساءتها
الخسائر والمغارم .

واست بمفراح ان الدهر سرني
ولا جزع من صرفه المتقلب

***

كلا بلوت فلا النعماء تبصرني ولا تخشعت من لأوائه جزعا

ونحن لا نزال نرى البطولة تستحى أن تباشر اللذات
الجثمانية والشهوات المادية حتى لتود لو تجردت من خواصها
وتخلصت من بدنها . فهي من باب اولى حرية أن تحتقر
مظاهر التنعم والترف . والبذخ والسرف وهل رأيت او سمعت
قط ببطل يعني بقيافته وهندامه . بحليته ووسامه . او يعلق

ادني اهميته على الوان خوانه . أو الوان ردائه وطيلسانه . او يكاد يختنق غما اذا اتاه طباخه بالملوخية بدل القلية ، او يهم ان ينتحر هما اذا حرم علاوة اودرجة في الميزانية . او يجعل همه من الدنيا محظيـة او (ابعدية) او (بسكويتا) أو (بنكنوتا) أو شهادة رئيس كذوب . أوابتسامه مومس خلوب . كلا ما كان ذلك قط من شيمة الابطال ولا من شيمة سعد وحاشي لسعد وهو البطـل العظيم ان يسف لامثال هذه الحقائر مثلما يسف اليها اقوام تحككوا فيه كذبا وبهتانا وانضموا اليـه زورا وعدوانا فحسبوا وهم الاصفار النوكى . والاحراض الهلكى انهم بفضـل ما انعكس عليهم من سنا نوره الوضاء سيخدعون الناس عن حقائقهم فيوهمونهم انهم المشرقون النيرون ـ وانهم للعظاموين المعتمون . أجل انا لا ننسى ماقد تسفل اليه اولئك الاصفار من حقائر الاغراض يوم كانوا مع سعد اثقالا على عنقه واعباء على عاتقه وقيودا واغلالا وآفات ومصائب وهم يوهمون الناس انهم انصاره واعوانه واخوانه . وخلافه .

ولكن البطل سعد لا يحفل باولئك الاصفار فانهم

كالاصفار عن شمال كمينه الايجابية لا قيمة لهم معه ولا يحدثون في مقداره الهائل المديم الحد زيادة ولا نقصانا وان كنت شخصيا اميل الى الاعتقاد بأنه بعد انفصالهم عنه قد صار اعظم واكبر . واصبحت كميته أوفر واكثر .

ومن كان يحسب أن خبائث اولئك الغادرين وسخائف غيرهم من الخونة المارقين وعواء سواهم من الحمقى الأفونيين تثير غضبة سعد او تكدر صفاءه فلينفين هذا الوهم من خاطره وليعلمن أن بطولة سعد تأبي عليه أن يقابل هذه الحماقات والسخافات وهذه النذالة والسفالة الا بمنتهى الاستخفاف والهزء والضحك . وقدما كان الضحك والميل الى المزاح والمداعبة من اروع سجايا البطولة . وما زالت صحف التاريخ تعرض عليك الابطال من ساعة الروع وازمة الهول والبلاء أشرح مايكونون صدرا . وارخي بالا وأبسم ثغرا . الادلة التاريخية على ذلك اكثر من ان يحصى . نورد لك من بينها موقف سقراط ساعة اعدامه واماز يح سير توماس مور وهو على المشنقة . وقول حلحلة الفزاري وسعد بن ابان العزارى . فان عبد الملك بن مروان لما

أحضرها ليقيد منهما قال الحاحلة « صبراً » فقال حاحلة أى والله

صبر من ذى ضاغط عركرك   ألقى بوانى صدره للمبرك

ثم التفت للجلاد (وكان صاحب الثار) فقال له أجد الضربة فانى والله ضربت اباك ضربة اسلحته فمددت النجوم فى ساحته . ثم نظر عبد الملك الى سعيد بن أبان فقال له « صبرا سعيد » فقال أى والله

اصبر من عود بجنبيه الجلب   قد اثر البطان فيه والحقب

وتذكر ايضا من هذا القبيل قول وكيع بن أبي الاسود فانه لما يئس منه خرج الطبيب من عنده فقال لابنه محمد انه لا يصلي الظهر فقال له ابوه ما قال الملعوج فقال وعد انك تبرأ فقال وكيع أسألك بحقى عليك الا ما خبرتني بالحقيقة . قال ذكر انك لا تصلي الظهر . قال وبلى على ابن الخبيثة والله لو كانت فى شدقي لتكنها الى العصر

ومن هذا الباب ايضا ما جاء في مأساة « السياحة البحرية » للشاعرين الجليلين الانكليزيين « بومون » و « وفلتشر » على لسان « جوايتا » والقبطان البطل وزمرته الشجعان

جوليتا : ويحكم ايها المتمردون . اماعلمتم ان في استطاعتنا اعدامكم ؟

القبطان : بلى . وأنت أما علمت إن في استطاعتنا ان ننعدم ونهزأ بك ونحتقرك . هذه ـ وأبيك ـ أجوبة محكمة . صادرت عن افئدة مضرمة . وكلمات مأثورة . فائضة من ارواح كبيرة . قد اصبحت لفرط عظمتها نستهين بالعروش والتيجان . والسطوة والسلطان . وتلهو بالمحن العظام . والكرب الجسام وتلعب والخطب مشمر من ثيابه . وتضحك والموت كاشر عن نابه . وقدما كان الضحك زهرة الفطرة السليمة . واللعب ثمرة الشيمة القوية . ولا بدع فاجسم حوادث الدهر وكوارث الزمن احقر في عين البطل وأضال من أن تثير خاطره وتكدر صفو باله . فالحق عنده والواجب ان تكون الحياة كلها عيدا او عرسا وان تصدر منه اعماله الكبار كأنها النغم لرخيم منبعثا عن الاوتار . او كاغاريد البلابل والقماری حتى ولو كانت هذه الاعمال هي تقويض دوله الاشرار . وثل عروش الجبروت والفجار . وتطهير اديم الارض مما

قد لوثه من خبائث الطغاة . وانقاذ العالم مما قد جثم على متنفسه وشد خناقه من جرائم الظلمه العتاة . ونحن مازلنا نرى المظيم فى كل زمان او مكان ينبذ النواميس المتبعة والتقاليد المألوفة ظهريا منتهجا سبيل غزوته . ممثلا دوره المجبول عليه بفطرته . اصم عن العاذلين معرضا عن المعارضين جاعلا تحت قدمه ودبر اذنه صيحة الساخطين . وصرخة الناقمين . فلو استطعت ان تجمع في مخيلتك ابطال العالم وعظماء الدهر منذ بدء الخليقة فتستشف عن حقائقهم واكناههم اذن لبدوا لعين بصيرتك كانهم صبية يلعبون وغلمة يمرحون ويعبثون . وان بدوا لاعين الجماهير متلفعين اردية الجد والتدبير . متسربلين حلل الابهة والنفوذ والتدبير

قد تصادف فى كل يوم انسان واحدا تستبيك منه شيم احلى من المدام واشجي من الانغام . واشهى من المنى والاحلام . وتستصبيك منه شمائل . ارق من الاصباء والشمائل . في اريحية كما اهتز الحسام . ولوذعية مثلما تنبج الضرام فاذا بحثت عن سر هذا التفوق والنبوغ الفيقه الشذوذ عن مألوف العادات . ومحترم السخافات . وما

يعظمه الجمهور من مشروع الاضاليل . ومقدس الاكاذيب والاباطيل .

وكذلك شيمة البطل العظيم سعد وهذه شمائله وتلك اخلاقه . وهو ذلك الفذ الاوحد الفريد النادر المثال المنقطع القرين الذى لا ترى في الملايين نده ونظيره ولا يجود لك كل جيل بمثله . وهو اللغز الدقيق لا تدرك منه الافكار الا القشور والكوكب النائي القصى لا تنظر الابصار منه غير النور . وسائره محجوب مغيب عن الافهام والاوهام مختبيء فى ثنايا عظمته المهيبة . وغضون بطولته الوعرة الرهيبة ومتي كان البطل للجماهير مفهوما وللجماعات مدركا معلوما . ومع خضوع اوروبا لنابليون وانقيادهم لادني لفظة من لسانه واشارة من بنانه هل كانت تدرك حقيقة سره . ام استطاعت ان تحل لغزة وتكشف مكنون امره وهل استطاع الناس ان يفهموا قيصر وهانيبال وتيمورلنك وكولومبوس ولوثر وغاليلو الا بعد ان نفض لهم التاريخ من كل جهته . ومحص حقيقته . وكذلك شأن سعد بطلنا العظيم . فقل للناقد المدقق . والمتنطع المتحذلق الذى يحاول

قحة وغفلة وغروا أن يضع البطل الرهيب تحت مجهر نقد الاعمى . الا فلتلقين مقياسك ولتطرحن نبراسك ولتكسرن معيارك . ولتحطمن مخبارك ولتخسأن هيبة . ولتطرقن رهبة ثم لتنكصن على عقبيك ولتنجون بنفسك الضئيلة ولا تحاولن مرة اخرى ان تتعرض للطوفان فتغرق . وللبركان فتحرق : وابغ لك يا صاحبي بدل ذلك حلة انيقة . او زوجة رشيقة . وابذل جهدك بعد ذلك في نيل وظيفه عالية ودرجة سامية وماهية تشفى الغليل . وتهبك الفيتون والاتومبيل . واتخذ ياقرة العين قصرا وايوانا وجنة وبستانا وامتعة واثاثا . ثم خلف كما تشتهي ذكورا واناثا . واقض يامنيه القلب ايامك الهنية بين البيت والديوان . والقهوة والحلوانى . واشتم مرؤوسك وارتعش امام رؤسائك وجمل هندامك ورنح قوامك وسمن اردافك وتجمد لحافك . واضحك واطرب وارقص والعب : واحب واكره وغش واخدع ونافق وداهن . وحاسن وخاشن . واسلك سبيلك الوضيعة الخسيسة الدنسة القذرة التربة الوحلة الملتوية العوجاء . الخبيثة النكراء ، وبعد ذلك مت كما تحب

وتهوى وتغسل بماء الورد وتكفن بالحرير واذهب الى دار الاخرة في افخم موكب بين صراخ الاحباب ولطم الكواعب الاتراب ونشيد اولاد الكتاب واندفن كما تتمني في قبر من المرمر المسنون ، تحت افياء النخل والزيتون ، وكذلك تفذ بالسعادة والنعيم في حياتك ومماتك ويرحمك الله . ولكن لا تتعرض الى الابطال ولا تطأ حرم العظماء من الرجال ولا تلج على الليث عريسته ولا تستفز الافعوان من اطراقته . وتمثل قول القائل

حداك الى الحين حتى استثرتني

عليك واني في عرينى لمخدر

واياك ومناوأة الجلة الكبار . فانها مشوار كثير العثار . ولقد رامها من هو اجل منك واعظم ومن لا تصلح ان تصلح حذاءه . وتمسح رداءه . فباء بالخذلان وعاد بالخسران . وكان مثله — وهو الاريب الداهية — كمثل الفراش ساور المصباح . فاحترق منه الجناح . ثم التهمته النيران فكانه ما كان .

الباب السادس

«نبذة جميلة مختارة من تاريخ بطل مصر»

نعود فنسترسل في ترجمة هذا الرجل العظيم لذهن «الكبير الروح: المتوثب الوجدان. ونعود فنأخذ في دروسنا الجليلة التي نستمدها من الحياة العظيمة والشخصية الكبيرة. وما كانت حياة العظيم الا الجزء الاكبر من حياة الانسانية نفسها. ولو أردت ان تستخلص تاريخا حيا حارا لأمة من الامم. فالتمسه في تراجم عظمائها وقائمة أبطالها. ولو أنت تجاوزت ذلك الى حياة عامة أفرادها وعادى رجالها لما كان تاريخك الا مذكرات يومية بطعام الامة وشرابها. وشعبها وربها. وحيوانيتها وعجماواتها. وليست تراجم كبار الرجال الا برامج سامية للجنس وخططا عالية للنوع. هى اشد اثرا في تطور الانسانية من الفلسفة والعلم. وابتكارات الذهن. ومخترعات العبقرية لأن هذه لا تهذب نفوس الناس. ولا تظهر من اخلاقهم. ولا توقد

من وجداناتهم . بل ان الفلسفة والعلم والآداب والمبتكرات في كل يوم تقتل نفسها وتمحو اليوم منها ما يثبت الامس وأما حياة العظيم : فلا تني تخلق عظيما مثلها أو أشد عظمة وهي بعد مطهرة لدهماء الناس . مهذبة لاخلاقهم ووجوه الحياة عندهم . وما كانت حياة نابليون الا نسخة أخرى من حياة هنيبال أو الاسكندر . بل كم خلقت ترجمة نابليون من نابليون صغير . له روح نابليون العظيم ومشاعره . وليست له قوته . وليس له حظه .

***

تكلمنا فيما مضي عن نواح شتى من شخصية سعد زغلول باشا ومزايا عظمته ونحن اليوم ذاكرون شيئا من قوة عزيمته . وقوة دأبه . وأرادته . فمن ذلك أن المترجم به تعلم اللغة الفرنسية . وهو يكاد يجاوز الاربعين من سنه . ولم يلبث غير قليل حتى حذقها . واتقن معرفتها . وبلغ من المامه بها . ان أدى الامتحان بها في علم الحقوق وهو قاض في الاستئناف . ونال بذلك شهادة الليسانسيه

وأنت ترى من ذلك أن هذا الرجل الكبير كان ينزل

عن منصة القاضي ليجلس مجلس التلميذ . وذلك لان العظمة لاتخجل من أن تستخدم ماتحتها في سبيل كماليتها ، وان الشاعر العبقري لايضيره أن يجالس البغي لكي يستعين بتحليل نفسها على الابداع في قصيده وخواطره والفيلسوف لاتسمو نفسه عن أن يماشي السكير لكي يدرس طبائعه وعوارضه . والبحاثة العالم لايترفع عن أن يصحب السوقة ليكون مادة له في بحثه وتفكيره ؛ والناس كلهم طلاب معرفة وأشدهم في طلب المعرفة نوابغهم ، لان المعرفة ، في التعريف الفلسفي هي ضرب من القوة

هذا ولقد كانت الارادة القوية عاملا من أكبر العوامل في تطور العالم وارتقائه وازدياد وسائل المدنيه وأساليبها ومستلزماتها فهي التي رفعت الانسانية من ظلمة الخمول وحماة الانحطاط هي كشفت العالم الجديد وفتحت مجاهل العالم القديم وظهرت على متن العالم الجديد هي ذللت الكيمياء الحديثة واحماضها وهي أخرجت مكتشفات الطب الجديد وجراثيمه وأدويته ومضاداته وهي اخترعت عجايب الطيران ومدهشاته

ولا أحسب الرجل الذى يحاول اختراق الطريق مسرعا فتدهمه العجلات وكان يعجز عن بلوغ الجانب الآخر . لولم تتعطل فيه قوة ارادته . فعطلت فيه قوة ساقيه . الا ترى اللص الهادىء . يعدو والشرطى في اثره . واذا به قد وقف بغتة عن عدوه . وكان سابقا الشرطى بالمسافة البعيدة . ذلك لان قوة الارادة فيه قداضطربت . فاضطرب لها مجموع جسمه

ان امام الارادة القوية الوثابة لا تتطاول صعاب الامور وعسيراتها ولا تستكبر عظائم الخطوب وجليلاتها بل ان اجتياز نابوليون هضاب الالب وجباله وثلوجه وشعابه . هو الذى علمه ان يقول كلمة «مستحيل» ليست في اللغة !



الباب السابع

الوزارة السعدية

كان بودنا ان نردف هذه الكلمات بكلمات نحلل فيها وزراء الشعب وزيرا وزيرا ولكن الماثل لدينا الآن هو كلمة بديعة لصاحب البيان على حضرة صاحب المعالى فتح الله بركات باشا وزير الزراعة : كتبت حين اختير عضوا بالجمعية التشريعية وسنفرد رسالة خاصة بالكلام على وزارة الامة : ونجتزىء الآن بالكلام على احد أفراد الوزارة السعدية فتح الله بركات باشا وزير الزراعة

اذا كان الدهر قد عصف بالامة العربية بعد ذلك السؤدد والفخار وذهب بظلها بعد ان بسطته علي قرص الشمس واشعة الاقمار . فقد ابى الا ان ينثر اخلاف أهليها مع الرياح ، ويذر وبقية رجالها فى مشارق الارض ومغاربها فلم يخسر العالم منهم الا صفة الامة ، ولم يفقد الا شخصية المجموع ، وشاء التاريخ الا أن يحشر من الشراذم القليلة

من العرب ؛ أو ممن ينتمون الى العرب ، افرادا وأسرات
فى كل بلد كان للعرب فيه أثر ، وقطر كان لتلك الامة فيه
شأن وخبر ؛ ليكونوا دلائل وبراهين على قديم ملكهم ،
وعناوين وفهارس لمجلدات تاريخهم ، وهم وان اندمجوا فى أهل
البلد الذى نزلوه ، وامتزجوا بالقوم الذين نشؤوا فيهم ، وخلف
لهم من تزاوجهم ذراري وحفدة وسلالات ، وأصبحت
لهم مميزات الوطن الذي عاشوا فيه وعاداته ؛ الا انك لتظفر
بالعربي منهم ؛ فلا تقرأ فى صفحة وجهه الا صفحات تاريخ
العرب كله ، ولا تطالع في أساريره الا سلاسل مآثرهم
ومدناتهم ، ولا تقع فيه الا على شيمهم وخلاتهم ، ولا
تسقط منهم الا على قوة افهامهم ، ورجاحة البابهم ، وهو
بعد متميز عن أهل وطنه ، متفرد دون الوسط الذي يحوطه
متفوق على أفراد امته ؛ لانه وان فقد الروح الاجتماعية
التي هزّ بها آباؤه عروش العالم ، وفتحوا بتأثيرها مدائنه
واقطاره الا أن فيه لاتزال الروح الطبيعية التي تجعل العربي
أبدا انسانا قويا فى كل شيء ؛ ولا تزال سلالات العرب
فى كل بلد يقوون كفاآت أهله بتزاوجهم ؛ ويدخلون عليهم

من دمائهم ، حتى يدور الفلك مداره ، وتنصرم القرون وتنفرط الاجيال وينتهي اليوم الاخير من عمر الدنيا ، ولا يزال في العالم رجل يقول ها انا ذا عربي

*
* *

نقول ذلك ونحن بصدد نابغة مصرى الوطن والمولد عربي الارومه والمحتد ، واذا كانت كل امة من الامم اغا طرأت على الارض التى انتحلتها واستوطنتها ، وكانت السلالات البشرية قاطبة لا تكاد تعرف لها موطنا أصليا تقول هذا موطني على الحقيقة لا على المجاز ؛ فليس يعاب على المصريين أن يكون عظيمهم يرجع بنسبه الى أصل غير مصرى

فلا يندهش الناس بعد اذ رأوا من فتح الله باشا بركات ماراوا من شدة الذكاء ، وقوة العارضة ، وحمية الانف ، والنضح عن الحقوق ، والدأب في خدمة المجموع ان نقول ان هذا النابغة المصري ينتمي نسبه الى أبي بكر الصديق ففي دمائه تجرى روح ثلاثة عشر قرنا كاملا ، بل تكاد تكون روحه قطعة من روح الاسلام كله ؛ تفيض جميع مميزاته النفسية وخلاله ووجداناته وأفعاله من طبيعة الدم

الذى يسري في عروقه ، فكل ما نرى من وجداناته أثر من آثار ذلك الفيض الذى نبع منه ، بل هى صورة مصغرة من صورة روح الصديق رضى الله عنه ؟ ولتجدن ماء الغدير الفياض فى حلاوة مساغه وعذوبة مذاقه لا يختلف عن ماء النهر العظيم الذي فاض منه واستمد ؛ وكل ما نرى من غيرته وحميته طبيعة من طبائع مزاجه ، يمدها قلب كبير، وروح حارة ، وليس كأولئك الذين لا تكون الحمية فيهم والغيرة إلا نتيجة الظروف ، حتى لا نكاد نفرق بين غيرتهم وبين انفعالاتهم ، ومثلهم فى ذلك مثل الجياد غير الصافنات اذا عرضت فى السوق للبيع ، وجرى بها سمسارها شوطاً صغيرا أظهرت نشاطا وخفة ، وأبدت عتقا وكرما ، فاذا ابتاعها مبتاع ، وانطلق بها . لم يجد أثرا لذلك النشاط الوقتى الذى شاهده .

* * *

ولد صاحب الترجمة في اليوم الخامس عشر من شهر شعبان عام ١٢٨٢ بمنية المرشد . وكانت يومذاك تابعة لمركز دسوق وهي الآن تتبع مركز فوه من أعمال مديرية الغربية

وأبوه عبد الله افندى بركات . وكان أذ ذاك عمدة لمنية المرشد . ثم رفع بعدها الي وظيفة مأمور مركز دسوق وجده الشيخ عبده بركات . وكان من ذوى الثراء الطائل والغني العريض . وكان موظفا فى عهد محمد على الكبير . رأس الاسرة الخديوية . يشغل وظيفة كانت تسمي حينذاك ناظر قسم اوماهو فى معنى ذلك . وبدأ مقام هذه الاسرة بمنية المرشد منذ ثلاثمائة سنة . وقد نزحت اليها من البرلس . وتنمى الى ابي بكر الصديق رضي الله عنه .

فلما درج الى الحول السابع . دفعه والده الى كتاب البلد . شأن كل مصرى حتي اليوم . فلبث فى هذا المعهد الصغير حتي كان عام ١٢٩٣ فارسله والده الى مدرسة رشيد الاميرية . وظل بها حتي اتم التعليم الابتدائي . ثم انتقل حوال عام ١٢٩٧ الى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية . وكان ناظرها اذ ذاك عبد الله نديم . وبقى بها عاما كاملا . وفى سنة ١٢٩٨ دخل المدرسة التجهيزيه بدرب الجماميز بالقاهرة ومكث بها حتى السنة الثالثة ، واذ ذاك ثارت الثورة العرابية

وقد تقدمت بوالده السن ، وألفى الحاجة ماسة الى المترجم به . ليقوم بادارة مزارعه ؛ ورعى شؤونه وتدبير ثروته ؛ اذ كان اكبر أولاده ، فانقطع عن الدراسة والمدرسة ، وما كانت المدرسة يوما معهدا للعظمة . ولا متخرجا للنبوغ ، وهل كانت روح النابغة لتذكو وهل كانت نفس العظيم لتنضج . بين برامج المدارس وقيودها ، وجدرها وحيطانها ومحفوظاتها وقشور علمها . وما نفس النابغة الا قبس من قبس الله . بريد مضطربا واسعا ومكانا طلقا فضاء ، والا عاد دخانا يخنق الانفاس . ويعمي الابصار . بل كم أفسدت المدرسة من روح خصبة ، وعقل قابل للنضوج واستعدادات كبيرة . وما روح العظيم من المدرسة الا في محبس .

وأقام صاحب الترجمة بعد ذلك ببلده . وكانت المشاحنات والفتن والضغائن فاشية بين اهل البلد . سارية بين اسراته وعشائره ، حتى كان بالبلد على صغره سبعة عشر محاميا يشتغلون بقضايا الخصومات الثائرة بين اهليها أمام المحاكم التي انشئت اذ ذاك للفصل في امثال هذه الخصومات والمشاحنات ، وكانت أراضي أهل البلد في ذلك الحين مرهونة للمصارف «البنوك»

والحكومة ، واندفعوا فى الفتن والمشاحنات وأمعنوا في
في المدابرة والمنازعة . حتي ضجت المديرية والمركز في
أخريات عام ١٨٨٦ ميلادية من هذا البلد وحال أهليه ففزعت
الاهالى والحكومة الى صاحب الترجمه بريدونه على أن
يكون عمدة للبلد . وكان اذ ذلك في ريعان الشباب . لم يجز
بعد الربيع الاول بعد العشرين . على حين أن القانون لم
يكن ليبيح وقتئذ تعيين من هو في مثل سنه في منصب
العمدة . وكان المترجم به لا يميل الى اسناده اليه . لما كان
يراه في ذلك الحين من عسف الحكام وبلوغهم من الارهاق
والاستبداد الى الحد الذي لا يلتئم مع رجل يشعر بكرامة
نفسه وشخصيته . ولكنه اضطر الى قبوله . اذ رأى الحاح
الاهالى والحافهم . ووعود الحكام اياه بانهم سيأخذون
بالحسنى ويجنحون الى اللين والعرف وكذلك ترى الرجل
النابغة النابه . تبدأ شهرته حيث تبدأ مواهبه تظهر لقومه
واهل بلده . ولا تزال شهرته تنتقل من بلده الى جوار بلده
ومن جوار بلده الى البلدان القريبة منه وكذلك تروح فى
البلاد وتغدو حتي تعم الامة جميعها .

ومضى في منصبه ذلك حتي سلخ عام ١٩٠٧ . يصلح ذات بين القوم . ويرد الحزازات والضغائن ائتلافا ومودة حتى كان من اثر ذلك ان انفرحا خمسة عشر عاما لم ترفع فيها قضية واحدة لاحد من الاهالى الى محكمة من المحاكم لا بينه وبين آخر من أهل البلد نفسه . ولا بينه وبين الغير . وأخذ ينشر الامن في بلده والتحاب والتواصل بين اهليه . وكان من ذلك ان ديوان الاهالى سددت . واستخلصت اراضيهم من قيود الرهون . وحسنت حالهم . ونمت ثروتهم . وابتاعوا من أرض البلدان الاخرى المجاورة . وبلغت الثقة بينهم الى حد أن الرجل منهم اذا احتاج الي مال قليل أو كثير . اقترضه من اخوانه دون سند أو سفتجة أو شهود . وكذلك مضى يبث بين اخوانه العمد روح التضامن والائتلاف والتضافر حتى أضحوا جميعا يدا واحدة مجتمعين فيما ينفعهم . متواتين على مايوجب احترامهم وتوقيرهم .

وعند انشاء لجان الشياخات وتأديب العمد والمشايخ منذ نيف وثلاثين عاما انتخب صاحب الترجمة عضوا

نائبا عن مركز فوه فى لجنة الشياخات باجماع الآراء . وان كان أحدث العمد سنا . فكان له فى هذه اللجنة كثير من المواقف المشهودة حيال مديرى هذه المديرية . وكانوا هم أصحاب النفوذ والسيطرة على هذه اللجنة التي كانوا بطبيعة الحال برأسونها . وكان هو الرجل الفذ الذى كان يخالف أميال المديرين وأهواءهم ونزعاتهم . غير مبال بسخطهم ولا حافل بغضبهم . ولا مكترث بما يجلب عليه غضب أمثالهم .

وبقى بهذه اللجنة حتى نهاية سنة ١٩٠١ . وكان يعاد انتخابه في كل عام . باجماع الآراء . وانتخب في سنة ١٨٩٩ فى لجنه تعديل الضرائب بمركز فوه ونهض فى ذلك بواجبه حتى ان الضرائب المقررة على مركز فوه كانت أخف بكثير من سائر الضرائب المقررة على بلاد القطر ولا يغيب عنك مالاقى من المشاق . وعاني من الصعوبات فى سبيل المحافظة على الصدق والامانة فى هذا التعديل

وفي سنة ٩٠٢ انتخب عضوا لمجلس مديرية الغربية فلم يستطع ان يظهر مواهبه وكفاءته . اذ كانت مجالس

المديريات ضيقة الدائرة . لا تنعقد الا مرة واحدة في كل عام . للتصديق بما تقرره نظارة الاشغال . وبقى عمدة الى اوائل سنة ١٩٠٨ اذ انتخب عضوا لمجلس شوري القوانين واذ ذاك جالت مواهبه المالية جولاتها . وتجلت كفايته الشخصية في أبهي مظاهرها . لان الرجل العظيم لا يبدو عظيما الا فى المواطن التى تجد عظمته فيها مجالا واسعا . ومتقدما براحا . وأنت فلو جئت بديموستين اليوناني، رب الفصاحة وملك الخطابة . ورأس البيان . فجعلته معلم صبية . اذن لما وجدت منه الا رجلا بسيطا . ولا الفيت لبلاغته أثرا . وما كان ليستطيع أن يظهر لا كل بيانه ولا بعضه فلا جرم ان تكون كفاءة صاحب الترجمة فى مجلس الشورى غيرها فى مجلس المديرية . فليس من يقف مدافعا عن حق فئة قليلة كمن يقف فى جماعة نافحا عن حقوق الامة جمعاء ولعل الناس لم ينسوا بعد ماكان له من مواقف مشهورة ومواطن مأثورة . مما لايتسع المقام لذكره الآن

وظل فى مجلس الشورى حتي انفض فى سنة ١٩١١ وجاءت على آثاره الجمعية التشريعية فانتخب عضوا فيها عن

مركزي فوه ودسوق وبعض بلدان من مركز كفر الزيات

***

ولا يفوتنا أن نصف لك فى بضع كلمات هيئة المترجم به وأخلاقه ومبادئه اذ كانت الطبيعة تنم فى الانسان عن روحه ، وتخرج للناس منها صورة دقيقة الحجم تطبعها فوق ملامح وجهه وهيأته ومعارفه وجميع أجزاء تركيبه الانسانى وما آداب المرء الا نتيجة ائتلاف ارادته النفسية ونظامه الجثماني ؛ بل ان هى الا آثاره نفذت الى يديه وقدميه ووجهه وجميع أجزاء جسمه . فقام بهذه الحركات التى اصطلحنا على تسميتها بالآداب

فلو أنت طالعت المترجم به . لالفيت رجلا خفيف اللحم . ربعة القوام . اسمر اللون . بشوشا فدوخط الشيب مفرقيه وشاربيه . ولوجدت ازاءك رجلا نشيطا حلوا لحديث طيب المحاضرة . ثم اذا أنت خالطته ومازجته وآنست اليه رأيت منه اخلاقا سامية . وصفات حرية باعجابك خليقة بمديحك واستحسانك وجملة هذه الاخلاق ثقته بنفسه والثقة بالنفس من أخلاق العبقريين . لان الرجل العبقرى

كوكب في نفسه لا يستمد من نور غيره . ويأتى بعد ذلك ميله الى الجد . وصدوفه عن اللهو . فهو رجل عمل لا يجد اللذة الا في قضاء عمله وما عرفناه يوما من جلساء القهاري وروادها اولئك الذين تزدحم بهم قارعات الطريق وأفاريزها وابهاء القهارى وقاعتها . حتى ليخال لك وهم مرصوصون بعد المغيب مصفوفون انهم جاءوا يسمعون محاضرة أخلاقية وكأن في كل قهوة خطيبا يخطب زبائنها . وانه ليجول بخاطرك ساعة تشهد ذلك المحفل الحافل ان نصف بيوت المدينة قد خلت من رجالها وشبابها

والمترجم به من أشد الناس حرصا على الفروض لدينية وأدائها فى حينها لا تفوته فريضة . ولا يشغله عن صلاته شاغل

والمبدأ الذى يسير عليه فى جميع اعماله هو الانتصار للحق وتأييده أنى كان . والاخلاص للامة . والعمل على تحقيق مطالبها في ظل السكون . بعيدا عن لغط اللاغطين

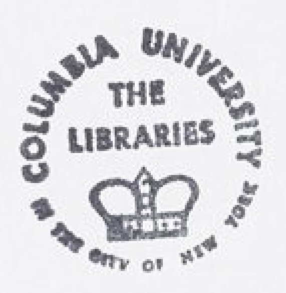
(انتهت)










COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

